علاقة التوتاليتارية المجتمعية بالضغوط النفسية واستراتيجيات المواجهة

د/ العربي فرحاتي
أستاذ التعليم العالي جامعة باتنة

لقد خلقنا الإنسان في كبد [1]

أولا – مقاربة مفاهيم البحث في ضوء العلاقة:

كما هو مبين من العنوان، فالبحث يتناول بالدراسة مفهومين مركبين (التوتاليتارية، والضغوط النفسية) من حيث العلاقة بينهما في سياق حياة الفرد في بعديها السوسيولوجي والسيكولوجي) وفي ما يلي تبيان للمعاني والدلالات الرابطة بين المفهومين.

1 ــ **التوتاليتارية:** (Totalitarianism) كلمة فرنسية تترجم إلى العربية بمعنى " الشمولية أو الكليانية "(1 :340) [2]ويعني كذلك الإحاطة بكل شيء . وهو مفهوم نمى وأخذ منحى في معانيه ليعبر عن الهيمنة السياسية والأيديولوجية، حيث يدرج في الكتابات المعاصرة من ضمن مفردات ومصطلحات القاموس السياسي، ويعني به أيديولوجية الحكم الشمولي الذي يحتكر كافة مظاهر الحياة ويسطر على جميع أوجه النشاط الفردي والجماعي، وعلي مكونات المجتمع، البشرية منها والمادية، بما فيها تنميط حياة الأفراد والجماعات والمؤسسات، وتوجيهها وجهة محددة سلفا. ويضفي على ذاته التمطلق والقدسية (الفتشية). (2: 89) وينقسم في ظله المجتمع ــ وفق علاقات القوة والسلطة ــ إلى آمر ومأمور، وسيد ومسود، وقوي وضعيف، وغالب ومغلوب، وحاكم ومحكوم، ورئيس ومرؤوس، وعارف وغير عارف... وبلغة علم النفس ينقسم إلى "مازوخيين وساديين". ووفقا لــ "هيجل" وما

---

[1] سورة البلد. الآية 3.

[2] يشير الرقم الأول إلى رقم المرجع في قائمة المراجع المثبتة في نهاية البحث والرقم الثاني ما بعد النقطتين يشير إلى رقم الصفحة في نفس المرجع. ونظام التهميش في هذا البحث خصصت فيه الهوامش السفلية لتوضيحات والشروح فقط.

أسسه من نزعة تأليه الدولة والسمو بها فوق الجميع كما فعل أفلاطون من قبله، فإن التوتاليتارية كصفة للدولة سوف تستمد من الفتشية"Ant fetishism " مشروعية السيطرة والتسلط على الجميع، وحق الرقابة ومبدأ تسخير العوالم المادية والرمزية والبشرية والمؤسسية وامتلاكها كقوة، والقائد التوتاليتاري الفتشي، هو رقيب كلي مكلف بضبط الرعاع، متصل بشكل اتحادي استيعابي لمفردات بيئته سادي، يمتد وجوده ليملأ كل الفراغات، يختزل من حوله من الكائنات البشرية وغيرها من المنظومات الرمزية في ذاته، فيختصر تاريخ الأمة كأنثروبولوجيا وسوسولوجيا، والوطن كمورفولوجيا وإيكولوجيا، والأفراد كأناسي سيكولوجية، والدين والفكر كرمزية في شخصه.

فهذا المفهوم للتوتاليتارية ــ كخطاب شمولي ــ ارتبط بعدة مفاهيم تكاد تكون من مؤشراته الدالة عليه، كالاستبداد، والديكتاتورية، والاحتكار، والتصلب المعرفي والتعصب الأيديولوجي، والاستيعابية، السيادة المطلقة،...وما إلى ذلك من المصطلحات السياسية السلبية التي يصاحبها أو ينتج عنها، الاستبعاد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، والاضطهاد، والتهميش والإقصاء للأفراد، والخضوع، والعدمية وتكريس العلاقات الميكانيكية العمودية الخطية والمجتمع الهرمي التدرجي...الخ وهي كلها أفعال أو إستراتيجيات تولد ثقافة القدرية السلبية.

فتوصف التوتاليتارية في الدراسات الأنثروبولوجية على أنها وضع تاريخي آسن نشأ عن الفيتيشية والفرعونية وتأليه الإنسان، ومن حكم الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، الذين قدسوا ما صنعوه، وهي أبوية متطرفة ضد الأمومة، وفي تحليلات دور كايم هي انتحار الإيثار حيث لا تصبح الذات ملكية خاصة(3: 237) وفي توصيف بوبر هي انحراف تاريخاني حتمي وظف ضد المجتمع المفتوح، (4: 281). وعند "حنا أرندت" وضع لأناسي ما قبل الثقافة وما قبل الأخلاق، (5 : 382 ــ 394) وعند مالك بن نبي هي وضع لجماعة من المشمولين المهزومين المهمشين.

1 ــ 1 من صور التوتاليتارية:

أ ــ ومن صور التوتاليتارية في السياسة ما عرف بالشوفينية والهتلرية والشيوعية من حيث أنها صور لاحتكار الدولة وتدخلها في كل مفاصل وتفاصيل الحياة،(1 : 340).

ب ــ ومن صورها المؤسسية، تشييد الدولة القانونية القائمة على الضبط الاجتماعي الأبوي الصارم، ومأسسة الفرد وقوننة وجوده الاجتماعي بالتوثيق البيروقراطي،

(الشرعية البيروقراطية) حيث لا يعترف بميلاد الفرد ووجوده ولا بمواطنته إلا بعد أن يمنحه البيروقراطي شهادة الميلاد، ولا يعترف بما يفرزه المجتمع من أفكار وتنظيمات إلا بعد أن يمنح أوراق الاعتماد ، فارتبط كل الوجود الاجتماعي للأفراد والجماعات والأفكار في الوضع التوتاليتاري في صورته البيروقراطية بما يمنحه البيروقراطي من شهادات واعتمادات رسمية بغض النظر عن وجوده الطبيعي، فسلطة الدولة القانونية البيروقراطية هي من يمنح شهادات الحياة والميلاد والوفاة ، وينطبق هذا الوضع على ما ولد بيروقراطيا من الأحزاب الوطنية المستأثرة بالحكم منذ أزيد من نصف قرن في الوطن العربي، وكل أشكال الملكية هي صور من صور التوتاليتارية في الدول العربية الحديثة، أنشأتها التوتاليتارية العالمية كهامش لها أو محيطها تنتج في ظل فلسفة القوة والتحكم ثقافة القدرية السلبية على أوسع نطاق.

وإذا كان في زمن التوتاليتارية الاستعمارية كانت الشعوب المقهورة قد عاشت قلق الوجود، فأنجزت بصدق حدسها الجمعي التحرير العظيم، فإنه في زمن التوتاليتارية السياسية وقيام الدولة الوطنية البيروقراطية التي أنشئت عقب ثورات التحرير وسقوط التوتاليتارية الاستعمارية ـ فتعيش قلق الوطنية بكل حيثياته وملابساته، حيث أن الوطنية الاندفاعية التي طبعت المشروع التنموي الحداثي أو التحديثي، لم تستطع أن تنجز إلا نقل المجتمع كمجمعنات وحشود من حالة الثورة، إلى حالة الأزمة، ومن الوطنية الاندفاعية إلى الوطنية الإنتفاعية، تتعاطى مع العمل بقانون الثواب والعقاب، وفق فرضية الأمن، فما يسمى المشروع التنموي الذي أعلن أيام الاستقلال وغداة الإعلان عن الثورة الشعبية الاجتماعية لم يكن إلا مشروع للإشباع المادي صيغ في ضوء فلسفة الحاجات الأساسية كما هي عند "ماسلو" عبر الإعلان عن الثورة الصناعية والزراعية وهاجس النمو والامن ، حيث قدس فيها المدنس ودنس فيها المقدس وأضعف، وزحزحت قيم الهوية المعيارية المرتبطة بالمقدس من عليائها، فغاب مفهوم الأمة كنسق من القيم، فصار الشعب بالتوصيف النفسي شكيزوفرينيا في كليته، منقسم إلى بائس ويائس ومستكين ومهجر وفار ومسجون، لا يستطيعون ـ ككائنات ووحدات ـ التعبير عن وطنيتهم من حيث هي هوية للمواطنة والحرية في الحقوق والواجبات، إلا من خلال حرق أجسادهم النحيفة، أو الإلقاء بها لأسماك القرش، فإذا أحرقت وألهبت نار الثورة، هبت صقور التوتاليتارية السياسية لتقطف الثمرة وتجدد ذاتها من خلالها وتبدأ في تزييف التاريخ وسرقة الإرادات الجماعية، حيث تلبس لباس الثورة في زمن تراجع العقل أمام العواطف

الجياشة للجماهير، وتتدثر بالهوية والرمزية التاريخية وتحتمي بها، ثم ما إن تهدأ العواطف حتى تطرح أثواب الثورة والهوية والتاريخ وتخلع، فتبعث الوطنية الإنتفاعية من جديدة، وتعود حليمة إلى عادتها القديمة، تسفه غضب الجماهير وتسرق آمالهم وتلعن كل من يبحث عن معنى للتاريخ وتطارده. تلك هي مشاهد الغضب الشعبي المستمر في الجزائر، باستمرار التوتاليتارية السياسية، ومشاهد الثورة الشعبية في تونس، والمشاهد الدرامية لإنجاز الوطنية تتكرر هنا وهناك في كل مساحات الوطن العربي والأمة الإسلامية.

ج ــ ومن صور التوتاليتارية العقل الشمولي اللاعقلاني، إذ يمكن الحديث عن العقل الشمولي من حيث هو العقل المهيمن الممتد إلى الحياة الاجتماعية كما هو في تحليلات "تارد" وهو ما قاد إلى شرعية الحديث عن اللاوعي الاجتماعي أو اللاشعور الجمعي والعقل الجمعي والأنا الجمعي، وبانحراف هذه الصور العقلية في صيغة التوتاليتارية أصبحت في نظر الكثير من مفكري المابعد من نتائج العقل اللامعقولة. ويحول الجماعة المؤسسية إلى حشد انفعالي وكتل ديمغرافية مكدسة على حد تعبير مالك بن نبي، زاهدة في حريتها، لا تعي ذاتها إلا وهي مدافعة عن التوتاليتاري عبر مورفولوجيا البيروقراطية والمجالس الديمقراطية، وبسيكولوجية التعلق الجماهيري . (5 : 382).

د ــ ومن صورها أيضا تلك المنظومات المعرفية الرفيعة التي أنتجتها ثورة التنوير باعتبارها ثورة ضد التوتاليتارية الكنيسية، فسقطت واستحالت ــ جراء تقديس العقل والتفاني في هدف التحكم والسيطرة العلمية ــ إلى ما يمكن اعتباره هيمنة التفكير الوضعي ، بل تعاطت النظريات مع بعضها البعض بدوغمائية شديدة،. ففي علم النفس حجبت دوغمائية فرويد رؤية كثير من حقائق النفس وشكل بدوغمائته سلطة معرفية قاهرة للآخرين في مستواه المعرفي، وتموضع كل من أدلر ويونغ بدوغمائية شديدة ضد فرويد، وأنكر السلوكيون اللاشعور جملة وتفصيلا باعتباره مفهوم دوغمائي ...الخ .(6 : 78) . وما ظهور المدرسة النقدية التجاوزية، إلا نتيجة الضغط الفكري الذي أحدثته السرديات العلمية الكبرى كما وصفها ليوتار "توتاليتارية علمية يقينية " وتاريخانية يرصدها بوبر في أقوال من مثل (اعرف أن النهر سيمر من هنا) أعرف سلفا بأن هذا سينتهي كذلك) (7: 70) .فأبدعوا ما يسمى العقل التواصلي اللايقيني.

هــ ومن صورها في المشاهد التربوية الحديثة ، الهيمنة والرقابة الزائدة الصارمة للأم والأب والمعلم والمدير والبرنامج على حياة الأطفال والتلاميذ، ولعل ما رصده النفسانيون

أمثال الباحثة "ميلاني كلاين" تلميذة فرويد، من أنماط وأساليب تربوية وحتى سياسات تربوية هي مشاهد توتاليتارية متسلطة ضاغطة (8 : 140) وكذا ما نبه إليه العالم النفسي الفرنسي "بيير داكو" من تسلط ــ مقنع بالمحبة ــ لذوي القربى هو من أبرز صور التوتاليتارية التربوية، (9 :100ــ 109). فلم يجد كل الواقعين تحت العيون في الوضع الرقابي الصارم، والرعاية الشاملة، أية فرصة للتعبير عن الذات نتيجة "الإخلاص السلطوي" فلا يريد الكبار وذوي السلطة، من الصغار والمتسلط عليهم، أن يفكروا أو يسمعوا أو يروا أو يعملوا أو يعلموا أو يقرءوا إلا ما أريد لهم أن يفكروا فيه ويسمعوه ويعملوه ويقرؤه ويروه . فالتربية بهذا المعنى الوظيفي سلطة رمزية وصفها "بورديو" في نظريته الموسومة بـــ معاودة الإنتاج بـــ "العنف الرمزي". (9: 124). ووصفها "ليبينتز" وبلغة لا تخلوا من المبالغة بمدارس المدارس بـــ " معتقلات القهر" وهي عند أدلر مواطن لتكريس الإحساس بالنقص والدونية، (9 : 165 ــ 174).

والمشهد البيداغوجي القائم اليوم في مدارسنا هو مشهد لعلاقات القوة والتفاعل الخطي، ناتج عن احتكار التوتاليتارية القانونية والسياسية (الدولة) للفعل التربوي وتأميمه والتدخل في تفاصيله الدقيقة، (ما يقوله المعلم وما يقوله التلميذ) (10 : 233) وهو مشهد تسلطي مرضي، لا يراد منه إلا ما يريده التوتاليتاري (الترويض). فلم يحصد الأطفال والكبار ضحايا هذه التربية الدمجية الاحتكارية إلا الشعور بالدونية، وما يسمى جملة بـــ "الخصاء النفسي" أو قلق الخصاء. (9: 106 ــ 110).

فالتوتاليتارية بهذه الصور وبوصفها هدر وهيمنة ضاغطة على حرية الأفراد، وعبء ثقيل على النفس، قد تؤدي إلى انتشار حالات مرضية كالقلق العصابي، يعم كل مكونات المجتمع، وهو ما يشرعن بحثها كظاهرة سيكولوجية مولدة للضغوط النفسية، ويستوجب علينا في هذا المقام تبيان معاني الضغط النفسي من حيث ارتباطه بالوضع التوتاليتاري لنستكشف العلاقة الوظيفية بين المصطلحين .

2 ــ حول مفهوم الضغط النفسي: Stress:

الضغط في مفهومه العام كما جاء في معجم المصطلحات التربوية والنفسية، يعني القهر والشدة والاضطرار، وهو حالة من التوتر النفسي الشديد، ويشير إلى معاني القوة والإجهاد والضيق، يحس به الفرد ويشعر حياله بعدم الارتياح، وعرف ذات المعجم "الضغوط النفسية" على أنها عوامل خارجية ضاغطة على الفرد، بحيث تكون شدتها تفقد الفرد توازنه

ويغير من نمط سلوكه إلى نمط جديد (11: 208) . ويعود توظيف المصطلح بهذه المعاني إلى الفيزيولوجي هانز سيلي (1956) عندما استخدمه للتعبير به عن حالة التمزق الجسدي جراء عامل خارجي قوي يسبب الضرر.(12 :19). وبهذا المفهوم يكون ثوب اللباس أو الحذاء حين يكون ضيقا على الجسم ضاغطا عليه، يبعث دون شك حالة من الضجر والقلق لدى الفرد، مما يدفعه للتخلص من حالة الضيق تلك، بإصلاح الثوب أو بالتخلي عنه ورفضه، فكذلك يفعل القانون والنظام والفكر والثقافة، حين تكون كمنظومات رمزية محددات للسلوك شمولية تبعث الإحساس بالضيق والقلق حين تكون ضاغطة على حرية الأفراد. فيندفع الفرد للتمرد عنها بأي شكل من أشكال التمرد، أو يحدث ما يسمى بالقانون النفسي والاجتماعي الفيزيائي (الضغط يولد الانفجار).

وفي الثقافة النفسية المتخصصة في التحليل النفسي الفرويدي يفسر الضغط النفسي على أنه، انطلاقة الفعل للحصول على الإشباع وإزالة حالة التوتر الناتج عن الإثارة الخارجية، التي قد يستجاب لها ــ حسب مقولات التحليل النفسي ــ بأي شكل من أشكال الهروب، أو تكون ذات المنشأ الداخلي لا يستطيع المرء الإفلات منها (13 : 123) . وعند موراي (1978) يعد الضغط خاصية، قد تعيق جهود الفرد (عندما تكون أكثر من قدرته في التحمل) أو تيسر له الإشباع (عندما تكون طاقة) وهو ما يعني أن الضغط النفسي مرتبط آليا بالحاجة، ولا ينفصل عنها، فلا يحس الفرد بالضغط، إلا إذا أحس بالعوائق، وعليه قسم "موراي" الضغوط إلى ضغوط موضوعية (الفا) وضغوط ناتجة عن إدراك الشخص وتفسيراته (بيتا) عند ما يواجه إثارة معينة. وعند فرج طه (1993) الضغط النفسي يعني تلك العوامل الخارجية التي تسبب التوتر والاضطراب وفقدان التوازن يدفع الفرد إلى تغيير نمط سلوكه ...) (12 : 19 ــ 20) .

فهو إذن مصطلح يعبر به عن وقوع الفرد أو جماعة ما، تحت وضعية أو ظروف توسم ــ كما عبر عنه المعجم الطب النفسي ــ بكبس أو وطأة أو ثقل أو إكراه. (14 :503) وفي المنهل التربوي، يعبر بالضغط النفسي عن حالة أو وضعية يحس فيها الفرد ويشعر حيالها بالتوتر أو ما يشبه القلق، جراء تعرضه للصراع في موقف من مواقف الحياة، أو نتيجة وقوعه تحت تأثير قسري للقوى الخارجية، أو حين مواجهته لمطلب ملح خارجي غير مرغوب، أو يفوق قدراته، بحيث يجعله مضطرا غير مختار للاستجابة، أو تعديل سلوكه تجاه ذاته أو مواقفه أو علاقاته ...الخ . (15. 875).

فهذا المفهوم السيكولوجي يدلنا على أن الضغوط النفسية التي يتعرض لها الأفراد والتي تكون فوق عتبة تحمله، ليست داخلية دائما بقدر ما هي ذات مصادر خارجية توجد في الوضعيات والأنساق الاجتماعية، قد تكون مهنية خاصة، وقد تكون ثقافية عامة كالوضع التوتاليتاري الضاغط والقاهر للأفراد والجماعات. من حيث هو وضع ثقافي أو تربوي أو مؤسسي أو أيديولوجي أو معرفي ...الخ) وهو ما يضطرنا إلى بحث أكثر لمسألة التوتاليتارية بوصفها أحد عوامل أو مصادر الضغط النفسي خارجي للأفراد والجماعات ينشأ عنها الإحساس بالعدمية .

3 ــ في العلاقة ما بين التوتاليتارية والضغط النفسي :

إذا ما عدنا إلى التحليلات السيكولوجية للثقافة، لاسيما في ما يسمى بالتحليل النفسي الإنساني عند إريك فروم، وعلم النفس الثقافي عند مايكل كول، فالإنسان من حيث هو ثقافي في طبيعته لا يمكنه أن يكون بهذه الطبيعة المميزة، إلا وهو دائم الاختلال والتوازن، ودائم التمرد عند كل حالة تفاعل بينه كذات، وبين العالم بوصفه آخر، لأنه لا يقبل ولا يهدأ ــ بما تميز به من عقل وقدرات فطرية ــ أن يعيش حالة السلبية والحتمية التي يعيشها الحيوان، وهو ما يجعله دائم الحركة نحو التكيف والتوافق ، وفي حالة العجز، فإنه يسعى إلى تدمير الحياة باعتبار ذلك أيضا من الإرادة والبحث عن التوافق، وبالتالي فهو ذو طبيعة ثنائية، فهو يحب ويكره من أجل توافقه، ويبني ويدمر من أجل توافقه، ويتواصل وينفصل من أجل توافقه أيضا، وهو ما جعله إرادي مختار، بل أنه يتحكم في حاجاته وغرائزه ويقودها في نطاق السياق الاجتماعي والثقافي، وفي نطاق إحساسه الدائم بالعجز والنقص. وهو ما ينفي القول بحتمية التصرف في النطاق البيولوجي، وهو النفي الذي قاد إلى تأسيس ما أسماه "مايكل" بعلم النفس الثقافي (السيكولوجيا الإنسانية) أو ما أسماه برونر بـــ النفسية الشعبية "(16 : 64)

وبحكم تثقيف غرائز الإنسان وحاجاته ونقلها من حتميات بيولوجية وفيزيولوجية إلى وضعيات لا محدودة في عالم لا محدود كما يرى فروم(6: 130) فإن أي تحديد وضبط لغرائزه وحاجاته من خارج ذاته ومن فوق طاقاته، يجعله في حالة من الضجر والضيق أي يجعله في حالة غير توافقية، حيث يعود به الوضع الضيق سيكولوجيا، إلى الماضي عندما كان محجوزا في بيئة الرحم، أو ما يحلوا للسيكولوجيين تسميته بـــ "الوحدة الأصلية مع الطبيعة" التي كان ــ بفضل نضجه البيولوجي ــ قد تخلص منها وخرج إلى عالم مفتوح حر. أي خرج من العالم اللاإرادي والاستتباع، إلى عالم الحرية والانفصال. ومن ثمة فالإنسان كما

هو دائم الحاجة إلى الأمن الذي فقده يوم ولادته، فإنه دائم البحث عن المعيارية التي تؤمن له حياته، كبديل عن بيئة الرحم الآمنة، وكما هو مشدودا دوما إلى الحرية التي نالها بفضل نضجه، فهو دائم التمرد على كل معيارية تضيق من حياته الاجتماعية والنفسية وتجعله كائنا سلبيا، فتواصله كدافع أو حاجة للإتحاد والتماهي مع الآخر، وغريزة التغلب عن الانفصال، يحددها الوضع الثقافي وتأخذ أحد الشكلين أو هما معا، فقد تأخذ الخضوع لشخص أو سلطة أو جماعة أو مؤسسة أو لثقافة ...الخ (المازوخية) وهي حالة يفقد فيها الشخص حريته وإرادته، أو تأخذ صورة تجاوز الوجود الفردي وتمدده كذات، إلى جعل الآخرين جزء من ذاته يستوعبهم في مشروعه الوجودي، ويحقق هيمنته وإخضاعه لغيره (السادية) كأن يصبح توتاليتاري، وفي كلتا الحالتين يفقد الإنسان مع هذا التواصل السلبي حريته واعتماده على ذاته، وبالتالي يفقد طريقه السالك السالم، نحو الإشباع والتوافق، فلا يصيب من ذلك إلا الإحباط، (6 : 135) .

ومن منظور سوسيولوجي أكثر وضوحا، يعبر دوركايم عن الوضعية التوتاليتارية المجتمعية من خلال دراسته للانتحار واعتقاده بمصدره الاجتماعي نافيا بذلك القول بمصدره السيكولوجي، حيث يصنف الظاهرة، إلى انتحار أناني الناشئ عن تحلل شديد للعروة بين الأنا والآخر، وانتحار الإيثار الناتج عن الاندماج الاجتماعي الاستيعابي (الفرد ملك للجماعة) والانتحار اللامعياري الناتج عن ضعف الضوابط والقيم الاجتماعية والتنظيم وغياب القواعد والمعايير، والانتحار القدري العدمي الناتج عن عنف الأنظمة القهرية التي تودي بمستقبل الأفراد. (3 : 235 ــ 237) وهي كلها ناتجة عن الوضعية الاجتماعية وأساليبها السلبية في تنظيم حياة الأفراد والجماعات لاسيما "الانتحار القدري" المرتبط بالتوتاليتارية المجتمعية.

وبناء على هذه المعطيات السيكولوجية الإنسانية للثقافة كمصدر خارجي لبناء الذات والتعريفات التوصيفية السوسيولوجية لكل من التوتاليتارية والضغط النفسي، فإن التوتاليتارية، هي صورة للعقل المهيمن ناتج في أصله عن النزعة الاتحادية مع الآخر بصورة سادية نرجسية متطرفة تجعل من الآخر ملحقا وخاضعا مازوخي، يعاني من ضغوط نفسية، وتجعل من التوتاليتاري سادي مهيمن مؤله، وبالتالي فالتوتاليتارية، رغم ما يلتمس لها البعض من المشروعية في بعدها الثقافي وصلتها بالعقل الجماعي، ووظيفتها في حماية الفرد من الوضع اللاأمن والخوف الناشئ عن الانفصال (قطع الحبل السري) وعلى الرغم من ما يظهر فيها من التسامي بالوجود (17 : 139) وكذا التأسيس الطوباوي الفاضل، والتاريخاني المجيد،

والجدلي المحرك للتاريخ، وعلى الرغم من مقولات تساوقها مع قوانين الطبيعة بتركيز خاصية الوحدة في الوجود الاجتماعي، ونبذ الاختلاف والتنوع، مع كل هذه المقولات، فالتوتاليتارية وضع مرضي وممرض من حيث هو وضع سلبي للفردية يقود إلى الإتكالية وإلى الفشل والإحباط، إن في صورة الذات المهيمنة السادية، وإن في صورة الذات الخاضعة (المازوخية) . ويمكن رصد هذه الانقسام الثنائي المرضي للوجود الإنساني، في كل دوائر وجوده الاجتماعي، في الأسرة والمؤسسة والدولة والمجتمع الدولي.

ثانيا : الوضع الحداثي بوصفه توتاليتاري يولد الضغط:

الوضع الحداثي وما تولد عنه من حياة الجمعنة الميكانيكية ، والتغيرات الاجتماعية المفاجئة، هي أبرز العوامل الحضارية المسببة في انتشار حالات الشعور أو الإحساس بالضغوط ، حيث وضعت الأفراد في وضعيات جمعوية تنميطية شديدة التفاعل والعلاقات والتأثيرات البينية، وشديدة التنوع في المطالب والحاجات، وشديدة الصراع والتنافس أمام تحقيق الإشباع، الأمر الذي يعد ضغطا مدنيا، يعيق جهود الفرد في إثبات الذات أو الإشباع أو الاختيار من منتجات الحداثة المتنوعة ومبتكراتها، وبدت عن كل فرد تعرض لضغوط الحياة، أعراض ومؤشرات سلوكية من نوع ما يشبه القلق" Primary Anxiety " أو الاضطراب في السلوك، دالة كمؤشرات على ما يسميه علم النفس بـــ "حس الضغط" Pressure Sensation " أو الإحساس بالضغط أو "الضغوط النفسية" القوية، قد تجعل الأفراد في حالة من الاغتراب عن الذات والواقع على حد سواء، أو تجعلهم ذوي تصرفات قهرية إن صح التعبير، إذ أن الحداثة برمتها وصفت في مجالها الإنساني كما لو أنها مدرسة لإنتاج الاغتراب،. (11 : 208).

1 ــ 1 المجتمع التوتاليتاري مجتمع لا سوي :

يصف المحللين الوضعانيين منهم خاصة، الحديث عن السواء واللاسواء في نطاق اجتماعي عام، بأنه حديث الميتافيزيقا وشأن فلسفي وما فوق الأمبيريقية، ومقاربات الماكروسوسيولوجي لا يمكن وضعه موضع العلم الأمبيريقي، ويؤسسون قولهم هذا على أنه لا يوجد مجتمع سوي وآخر غير سوي، وكل ما كان هنالك وجود أفراد غير أسوياء وآخرون أسوياء، إلا أن آخرين من الباحثين السوسيولوجين والسيكولوجيين غامروا وأدرجوا الحديث عن ذلك ضمن منظور الصحة النفسية المجتمعية ودرسوه دراسة موضعية معتمدين على

معطيات الصحة النفسية الأنثروبولوجية وعلى مقولة تماثل نمو الفرد بنمو الجنس البشري عبر التاريخ. وأن انتشار اللاسواء في أي مجتمع يمكن له أن ينتج العقل الجمعي اللاسوي.

ومن وحي سؤال حول إمكانية وصف المجتمع باللاسوي كما هو الحال في إمكانية وصف الفرد بذلك، وجه البحث السيكولوجي الاجتماعي عند فروم، نحو مفهوم السواء المجتمعي قياسا على مفهوم الفرد السوي، من حيث هو الفرد المتوافق في طبيعته مع بيئته وظروف معيشته، فالكل المجتمعي إن هو متوافق مع ظروف حياته وما أنتجه من ثقافة ومعايير وعادات وتمدن وحضارة، أمكننا الحديث عنه كما لو أنه مجتمع سوي، وإذا كان أغلب أفراد المجتمع أظهروا إخفاقا أو انتهوا إلى الفشل في الوصول إلى شكل من أشكال التوافقات، فإننا نكون أمام ظاهرة العجز والإخفاق والإحباط عامة، تظهر لدى الكل المجتمعي، مما يسمح بإطلاق اللاسواء على المجتمع .

وانطلاقا من تركيب ومزج بين فرضيتي، قدرة الإنسان الطبيعية على التكيف اللامحدود مع الوضعيات الصحية والمرضية في الحياة المجتمعية والفردية، كما هو الشأن في التكيف الذي يظهره الأفراد ويتماهون معه في الوضع التوتاليتاري المريض، وفرضية رد الفعل الحتمي ــ وإن طال الزمن ــ على كل فعل ضاغط في الحياة وفقا لقانون " الضغط يولد الانفجار " اهتدى فروم من هذه التركيب والمزج إلى صحة فرضية أخرى أكثر تفسيرية مفادها، أن الإنسان إذا عاش في وئام وأمكنه أن يتكيف مع ظروف تناقض طبيعته في الحرية والعفوية والاختيار (تعايش مع الوضع المرضي) فإن القول بتكيف الإنسان مع كل الظروف قول مضلل من نوع " نصف الحقيقة"، أما نصفها الآخر الذي يجب أن يستحضر هو، أنه إذا عاش الفرد تلك الوضعية، فإنه لا يستطيع مع مر الزمن أن يتمالك نفسه من رد فعل تجاه ما عاشه من الإغلاق أو الاضطهاد والوحشية، إما بالهلاك وإساءة الحال والمآل، وهي استجابة سلبية، وإما باستحداث ظروف، بحيث يكون في ضلها أكثر توافقا ، حيث يخلق أجواء الحرية والاستقلال، وهي حالة من الإبداع تعبر عن التمرد والاختراق لكل فعل مهيمن وشمولي يحد من حريته،

ومن هذه المقاربات السيكوسوسيولوجية ووفقا لمعيار الطبيعة البشرية، يمكن القول بأن كل حالة أو وضعية توافقية مع الطبيعة الإنسانية، تسود معها الصحة النفسية والسواء، وكل حالة غير توافقية يسود معها الاضطراب والعجز الذاتي والانعزال عن الواقع تصبح حالة لا سوية. وتصدق هذه العلاقة إن على المستوى الفردي وإن على المستوى الاجتماعي،

وهو ما قاد إلى تطوير ما يسمى بـــ " العصاب الاجتماعي" من حيث هو ذا منشأ من تعارض أو تنازع حاجات الإنسان الطبيعية (السوية) مع حاجات المجتمع البشري من حيث هي ثقافة وحضارة وتمدن وكل منغصات الحضارة كما أشار إليها فرويد .(6 : 121 ــ 123). مما يشرع الحديث أمام اتساع رقعة الإصابة بالعصابية عن وجود المجتمع العصابي مثلما يشرعن للحديث عن المجتمع السكري، والعصبي، مثلا عند تحول الظاهرة المرضية إلى وباء .وبهذا انتهت الدراسات السيكوسوسيولوجية لمسألة السواء واللاسواء في النطاق الاجتماعي، إلى أن المجتمع في الأوضاع التوتاليتارية يمكن أن يصاب كما يصاب الفرد باللاسواء من حيث هي أوضاع آسنة مريضة وممرضة، ميزت التاريخ الأنثروبولوجي للإنسان في ظل تحكم العقل الاستبدادي والأصولي المغلق . فالفشل الذي يصيب الأفراد في المجتمع التوتاليتاري في مشروع تحقيق الذات، من حيث هو مشروع يتعارض بالضرورة مع أهداف التوتاليتاري، يجعل من اليأس والإحباط صورة عامة للمجتمع ويدفع إلى اللامعيارية الأخلاقية كسلوك اجتماعي، حيث انتشار الحيل والغش والكذب والمراوغة والإغواء والإغراء في كل طبقات المجتمع ومفاصيله...الخ .

2 ــ التوصيف السيكولوجي للتوتاليتارية بوصفها ضغط:

تنتصر السيكولوجيا العلمية ــ لاسيما في طبعتها الفرويدية ــ للفردية من حيث هي نضال وجهاد مستمر في اتجاه رفع الضغوط المجتمعية الرمزية وكل ما من شأنه أن يعيق طبيعة النمو، بوصفه تلك السيرورات المتتالية التي تهدف إلى النضج واكتمال الشخصية في بعديها الفيزيولوجي والنفسي العقلي والوجداني العاطفي، عبر آلية الإشباع وتلبية الحاجات والرغبات. ومن ثمة فهي آليا تتموقع ــ كرؤية أيديولوجية ــ نمت مع نمو أفكار روسو التربوية ــ ضد كل ما هو اجتماعي ضاغط، (ثاناتوسي) يقف حائلا دون تحقيق الرغبات ويتسبب في العقد النفسية والمكبوتات، سواء تعلق الأمر بالنماذج التربوية الشمولية أو السياسية أو الثقافية العامة، حيث أن هذه النماذج بوصفها ضرورات اجتماعية (حتميات) كثيرا ما كانت في وضع تناقضي مع حاجات الفرد الطبيعية (غرائز فطرية) . ولما كانت الفردية لا تنموا ولا يكتمل نموها ولا يتحقق نضجها، إلا بتطويع ما هو اجتماعي لتحقيق التوافق من حيث هو الإشباع، (الايروس) فإنها تعتبر كل وضع اجتماعي شمولي ضاغط متصلب لا يقبل التطويع كالتوتاليتارية تعتبره انحرافا ووضع اجتماعي مرضي يصيب الأفراد في أعماق النفس، ومن ذلك ما ذهب إليه العالم النفسي الفرنسي "بيير داكو" من أن كل

شخص يشعر بحاجة شديدة إلى السيطرة على آخر، فهو شخص مصاب بالعصاب. (9: 102) ومن ثمة فالوضع التوتاليتاري ــ من منظور المحللين النفسانيين ــ غير القابل للتطويع والتسخير من أجل الفردية الناضجة،ــ وكما يمكن استشفافه من تحليلات حجازي للوضع العربي ــ إنما هو وضع يساعد على نمو نزوات ثلاثة، نزوة السطوة، والنرجسية، والانا المثالية، وهي ثلاثية من الأمراض العصابية تفتك بالفرد والمجتمع حال انتشارها. يصفها حجازي في إطار تحليلاته للإنسان المهدور في ظل الثالوث المرضي الاجتماعي (الاستبداد، العصبيات، والاصوليات) بـــ " المرض الكياني" من حيث هو مرض يصيب الفرد والمجتمع على حد سواء (18 : 38) ومن ثمة فالتوتاليتارية هي مصدر للضغوط النفسية والتصلب المعرفي وبمنظور الصحة النفسية المجتمعية أو الكفاءة المجتمعية المعاصرة، ويعد الوضع التوتاليتاري ــ كما هو موصوف أعلاه ــ وضع مرضي معيق للإشباع، بحكم الضغط النفسي الذي يحدثه ــ كعامل خارجي يتجاوز عتبة التحمل ــ على الأفراد والجماعات، مما يفقدهما مناعتهما النفسية والثقافية.ويؤدي إلى استجابات انفعالية غير عقلانية.

2 ــ 1 الفرد في الوضع التوتاليتاري فرد لا سوي:

للحوارات المفتوحة ــ التي يمكن أن تأخذ شكل الطريقة العيادية وصيغة التداعي الحر ــ أهمية لدى النفسانيين في رسم ملامح الشخصية والوضع الذاتي الناشئ في الوضع التوتاليتاري، فالشهادات الحرة المعبرة عن الهدر العام هي التعبير الأكثر بلاغة عن ما تولده الهيمنة التوتاليتارية من سلوكات غير سوية لدى الناس، ودونها وسائل كثيرة، حيث تفجير الغيظ المكظوم عند من يستطيع ذلك بالتفريغ (شهادات، عنف، مظاهرات، غضب...الخ) وكبت مكظوم عند من يفضل السكوت والصمت والانكفاء على الذات، وجلد الذات عند من يهرب من واقعه ويألف الخضوع والاستسلام ووهم العيش في وئام. وحلم في الكتابات والإشعار والإبداع الأدبي...الخ . (18 : 277 ــ 284).

واللوحة السيكولوجية التي يمكن رسمها للفرد المدمج في المشروع التوتاليتاري من خلال الصورة النمطية الفكرية للتوتاليتارية، هي لوحة ــ كما تعكسها الحوارات وأساليب التداعي الحر ــ عصابية أقرب إلى الشخصية اللاسوية، ناتجة عن تعارض أو اضطراب حياة الفرد ــ إن صح التعبير باللغة الفرويدية ــ من وضع أيروسي إلى وضع ثاناتوسي، وباللغة الداروينية هي شخصية لا سوية من حيث هي شخصية غير مكتملة، أو هي حلقة

من حلقات التطور السيكولوجي، ينجزها القائد التوتاليتاري كما يريد ويمنحها لمن يريد، عبر وسائل التنشئة في سياق قوانين الداروينية الاجتماعية باعتبارها الحلقة الأقوى الجديرة بالحياة.

فالأفراد ضحايا التوتاليتارية ــ من حيث هي استبداد ــ كما رصدهم حجازي من خلال الشهادات الحرة، هم أفراد مهدورين هدرا وجوديا، ذوي إحساس بظلم واعتداء خارجي على الذات، فمنهم من يعيش قلق الحاضر والمستقبل، ومنهم من يعيش الاستسلام للأقدار، ومنهم من يعيش حالة جلد الذات والعدوانية المرتدة إلى الداخل، ومنهم من يعيش حالة الانتحار الوجودي والتبلد والانشطار النفسي (الازدواجية) ومنهم من يعيش حالة الاكتئاب الوجودي من حيث هو "اكتئاب استجابي" ناتج عن فشل في تحقيق المشروع الذاتي، تظهر أعراضه في سلوك الفرد وحالته النفسية، حيث يظهر الفرد وكأنه في حالة حرب مع ذاته ناقم من الدنيا، يعلق تاريخه يجتر مآسيه، منزويا في الحديث اللائم للنفس، وقد يعيش حالة التلذذ بهذه الوضعية المرضية وهي أخطر حالات الاكتئاب الإستجابي (18 : 284ــ 299). ومن الطبيعي أن يظهر الفرد في الوضع الشمولي وكأنه لا إرادي ولا عقلاني، فهو أسير لما اسماه سارتر بــ "الإيمان الرديء" أو ما اسماه فرويد بــ"الأنا الأعلى" الذي هو في الوضع التوتاليتاري لن يكون إلا ذلك "الضمير التسلطي" كما يسميه "فروم" .(6 : 82). ومن الناحية الاجتماعية لن يكون إلا وهو منعدم الفردية والتميز والهوية يائس، وكأنه في هذا المشهد كائن "ما قبل ثقافي" يهتم بعيشه قبل أفكاره وببدنه قبل عقله، زاهدا في حريته، كما يبدوا كذلك وكأنه كائن "ما قبل أخلاقي" منزوع التعاطف مع الآخرين وممنوع منها، فقير في اتصاله وتواصله مع الآخرين، ذو ضبط خارجي. وهو ما يجعله في تفكيره دوغمائي انفعالي قطبي (اسود وابيض) غير متسامح، يستمد سلطته من قوة التمسك بعقيدته، من حيث انه يراها هي الحق المبين الذي تجب حمايته حتى ولو بالعنف والإرهاب.

ثالثا : إستراتيجيات مواجهة الضغوط الناشئة عن التوتاليتارية :

1: ما ليس من الإستراتيجيات الفعالة :

1 ــ 1 التطور التقني المعلوماتي:

على الرغم من التفاؤل الذي تشيعه وتطبعه التطورات المذهلة للتقنية المعلوماتية (تكنولوجيا المعلومات) في خفض حدة كثير من مشكلات وأمراض المجتمع من نوع الاحتكار المعرفي والضغط الفكري والحجر على الأفراد وطمس فرديتهم وتجاوز لكل الإكراه المجتمعية (المكانية والزمانية والمعرفية) فإنها تبقى محدودة الأثر ولو في المدى المنظور،

فبحكم طبيعتها العالية المرونة في التوظيف السياسي والثقافي فإنها بمثابة سلاح ذو حدين في يد الجميع، إذ أنه كما يمكن أن يستخدمها المواطن في اتجاه تعزيز حريته في الاتصال والترفيه والحصول على المعرفة، فإنها تكون أيضا في متناول التوتاليتاري واستخدامها في اتجاه تعزيز توتاليتاريته. وعليه يرفض الدارسون وضعها في سياق الصحة النفسية من الضغوط التوتاليتارية موضع البديل ويؤكدون استغلالها كما لو أنها معينات تكنولوجية لما يطورونه باستمرار من إستراتيجيات علاجية ووقائية وفي ما يلي محاولة للإحاطة بهذه الإستراتيجيات.

1 ــ 2 الآليات الدفاعية السلبية لمواجهة الضغوط التوتاليتارية

ومن أبرز ابتكارات الحضارة الغربية في مواجهة ما سمي بالقلق الحضاري، أو من ما يسميه فرويد بالمنغصات الحضارية والمدنية ، أو من المعيارية الشديدة في تحليلات دوركايم، هي ما سمي بآليات الهروب أو آليات التفريغ كــ" نوادي الترفيه النفسي والجسدي، وكسر الحواجز الأخلاقية والقوانين التوتاليتارية لتنفيس الغرائز (التفريغ) الجسدية لتجد طريقها إلى الإشباع والإحساس باللذة الجسدية، بما فيها التعاطي الإيجابي مع ما يسمى بالمشروبات الروحية وتعاطي الحشيش ومغيبات العقل، وبما فيها تعالق المرأة والرجل وتبادل الجسد بحرية (تحرير الطاقة الجنسية)، وبما فيها السماع للموسيقى الهادئة والصاخبة والرقص والغناء، وبما فيها التمتع بالمناظر الجميلة والمشاهد والقصص التلفزيونية والأعمال الفنية والمشاهد الكوميدية والدرامية السينمائية، وبما فيها تخفيض ساعات العمل وتمدد ساعات الراحة وحدائق الاستجمام، وبما فيها الرفاهية والعيش في بذخ، واختصارا وباللغة السيكولوجية إشاعة كل ما يعتقد أنه من جنس الأيروس لمحاصرة ومواجهة الثاناتوس .

وإذا كان الخلاص الحداثي من الضغوط الناتجة عن التوتاليتارية يأتي عبر هذا الاهتمام بهذا البعد الترفيهي الممركز للجسد كلذة ومتعة وإشباع من كل حرمان توتاليتاري في نطاق ما يسميه علم النفس بالعلاج الذاتي، فإنه وإن أدى ذلك إلى تهدئة وتفريغ الشحنات العصبية، واشتغل في النفس كآلية دفاعية ومسكنات ومهدئات، كما هي المهدئات الدوائية، فإنها بالتأكيد لن تستطع التكفل بإعادة الإبداع وإطلاق شجاعة النقد من حيث هي آليات "سيكولوجية الحرية. فاحتيال الفرد وترميم الذات بما يسترجع به المضغوط والمهدور في وجوده النفسي بعض اتزانه، (مثل الإسقاط، الارتداد إلى الذات، الإزاحة ...الخ فهي تعد سلبية لما لها من مضاعفات تتعلق باستنزاف طاقة الإنسان ولا تؤدي إلى نتائج مرضية،. ففي

الوضع الجماعي التوتاليتاري الاستبدادي الموسوم بالهدر، كما رصده الباحثون أمثال "حجازي" لا تنفع معه هذه الآليات، فلا الاحتماء بالماضي المجيد، ولا الركون إلى أحلام اليقظة، ولا حلم الخلاص ولا الاحتماء بالقدر والمكتوب، ولا الثرثرة والإفراط في الكلام، ولا وهم القيمة والمكانة، ولا الهروب إلى التعميمات والتنظير،ولا الهروب إلى السكر الصوفي أو الروحانيات الزنجية كما تسمى في أمريكا التوتاليتارية، وكل ما يسمى بآليات القلب إلى الضد، ولا انتشار الخرافة ولا السماح ببعض العدوان الجماعي والتدمير المادي كتفريغ، ولا الاستسلام للقائد الزعيم الملهم، فلا استطاع كل ذلك أن يكون علاجا شافيا من الضغوط النفسية، إن لم تعمل على إعادة إنتاجها واستمرارها، حيث يتخلى فيها الفرد صراحة أو ضمنا من مسؤولياته وحريته(18: 399 ــ 310) .والمقولة المسوقة حداثيا بارتباط السكر مثلا وتناول الحشيش بالإبداع الفني، كما هو مشاع لدى الفنانين هي باطلة بموجب الخصومة المحتدمة في الشدة بين هذه الآليات الترفيهية والتفريغية وبين العلم ذاته، إذ وجد في أكثر من دراسة أن معظم الذين يعانون من اضطرابات نفسية وعصبية، هم من الحشاشين ومن المعتادين على تغييب عقولهم بالمسكرات وتعاطي المخدرات . ومن ثمة فالاضطرابات النفسية قد تكون ناتجة أيضا عن هذا المسمى (آليات التفريغ) وما يقال عن السكر بالحشيش يقال عن السكر بالفكر.

1 ــ 3 الإستجابة المتجنبة الفتشية:

يوصف الوضع التوتاليتاري وما يولده من ضغوطات نفسية بأنه وضع فيتشي تشبيها له بما عرف عن المجتمعات البدائية من الحرص على تقديس الأشياء والأشخاص وعبادتها للاحتماء بها وتفادي أذاها(1: 446) . وصارت وكأنها من النماذج المفيدة في مواجهة الضغوط بوصفها آلية من آليات الحماية النفسية.وإذا كانت الفيتيشية تصنف ضمن الإستراتيجيات المتجنبة أو المتقبلة بوصفها ذاتها رد فعل واستجابة للضغوط ناتجة عن خبرة الأفراد والجماعات الثقافية والدينية في تقديرهم لمعنى المواقف، فإنها وضع تزلفي أو استجابة "تزلفية " لأغلبية أفراد المجتمع" لا تسمح بتغيير الوضع التوتاليتاري الجاثم على العقول والصدور، بقدر ما تعمل على المحافظة على إستمراره وتكراره وتضع المجتمع بأكمله في ما يمكن تسميته بـــ "الكثرة الغوغائية" وهو وضع إستجابي سلوكي فيتشي مرضي، مرفوض بمقاييس التنوير وعلومه، يستدعي التغيير والتفكير في إستراتيجيات المقاومة أو المواجهة من

حيث هي تطوير للاستجابات الصحيحة التغييرية التي تعيد الأفراد والجماعات إلى حالتهم الطبيعية من حيث هي الحرية الطبيعية.

إن هذه الآليات الدفاعية والمتجنبة، سلبية وليست في مستوى حجم المشكلة التوتاليتارية الحداثية، وهو ما اقتضى تطوير استراتيجيات بحجم المشكلة وتستجيب لمضاعفاتها وعليه فكر علماء النفس في آليات أخرى ممنهجة تسمح بتنمية الكفاءة الذاتية والاجتماعية لمواجهة الضغوط الناشئة عن التوتاليتارية وهو ما سنبحثه في التالي:

2 ـ حول التأسيس والتصنيف:

تتأسس إستراتيجيات الضغوط النفسية الناشئة عن الوضع التوتاليتاري، على تفسير اجتماعي للضغوط كما لو أنها ضغوط خارجية كلية اجتازت عتبة التحمل، يقع الأفراد والجماعات تحت وطأة ممارساتها السياسية والأيديولوجية الضاغطة، فجعلت منهم كم من العصابيين يعانون العجز النفسي ذوي مصدر ضبط خارجي سلبي قاهر. يحتاجون بدون شك إلى تدخل سيكولوجي وتربوي وسياسي عام، وعليه كانت إستراتيجيات المواجهة التي جادت بها العلوم والثقافات الغربية الموصوفة بالتنويرية تنوعت كالإستراتيجيات من منطلقات متعددة، قد لا نتمكن في هذا المقام من حصرها، وسنكتفي برصد النماذج والإستراتيجيات المعتمدة على الكفاءة الذاتية والاجتماعية ونماذج التحرير ويمكن رصد تلك النماذج مصنفة إلى صنفين، وفق معياري (الصحة النفسية الفردية والمجتمعية، ومعيار الحرية).

2 ـ 1 صنف سيكولوجي وفق معيار الصحة النفسية:

قد يتبادر إلى الذهن أن الحديث عن إستراتيجية سيكولوجية (فردية) تصمم إكلينيكيا لمواجهة مرض اجتماعي (العصاب الجماعي) هو حديث تجاوزي جزافي غير واقعي، لأنه يتعذر الحديث عن علم الاجتماع إكلينيكي، ومن المؤكد أننا لا نستطيع ولا يتاح لنا وضع المجتمع كله كحالة إكلينيكية نخضعه للمراقبة الإكلينيكية، ويتعذر علينا إلزام المجتمع بوصفة علاجية محددة، كما يقول فروم (6 : 124) إلا أنه مع ذلك يمكن الحديث عن علم الاجتماع النفسي للصحة والسلامة المجتمعية، مع الاحتفاظ بجسامة الصعوبة في ذلك، حيث نستطيع بدون شك ويتاح لنا بالتأكيد في أدنى الاستطاعة، أن نعد برامج إكلينيكية كلية مؤسسية (مدارس، علاقات اجتماعية وسياسية) تقوم على الوقاية وتحفظ الأفراد والجماعات بوصفهم علاقات من الضغوط النفسية كخطاب كلي، بل وتعالجها بيداغوجيا، في نطاق ما يسمى بالعلاج الجماعي المقرون بالعلاج الاجتماعي المؤسسي، فالأخصائي النفسي

أو الاجتماعي في أي مؤسسة يمكن لهما أن يطورا أدوارهما الوقائية والعلاجية وتدخلهما، من التدخل الموضعي ودراسة الحالة الإكلينيكية والسوسيولوجية على مستوى تجلياتها في الأفراد، إلى وضع إستراتيجيات للمؤسسة تستوعب آليات الوقاية من الضغوط التوتاليتارية، إن في ضوء المدخل السلوكي أو المعرفي أو ما يسمى العلاج بالمعنى أو بهما جميعا. وفي ما يلي بحث الإستراتيجيات المتمركزة حول الكفاءة الذاتية والكفاءة الاجتماعية في مواجهة الضغوط النفسية الناشئة عن الوضع التوتاليتاري باعتبارها تدخل سيكولوجي في نطاق ومعيار الصحة النفسية.

2ـ 1 ـ 1المداخل السيكولوجية :

ويعني بها المداخل المعتمدة على الكفاءة الذاتية والاجتماعية للفرد من حيث هي في التعريف السيكوسوسيولوجي مجموعة القدرات الذاتية ومكتسبات الفرد المعرفية والمهارات المرتبطة بإدارة ذواتهم وحياتهم وضمن مفهومهم للذات وقناعاتهم الشخصية وأهليتهم وجدارتهم في نطاق اجتماعي وثقافي معين، ومنها كفاءة تقدير الذات والمواقف، والقدرة على اتخاذ القرارات، وكفاءة الاتصال والتواصل اللغوي والاجتماعي والتعاون والشراكة والتبادل والتداول والتفاعل...الخ .ويمكن حصر هذه المداخل السيكولوجية في المدخل السيكودينامي، والتفاعلي، والتقاربي، وهي تطورات متعاقبة متداخلة للسيكولوجيا في مجال العلاج النفسي.

ويقوم المدخل السيكودينامي على ما طوره الجيل الأول في نطاق تطورات علم النفس والتحليل النفسي وعلى رأسهم فرويد من مفاهيم الميكانزمات الدفاعية (حيل دفاعية) من حيث هي ميكانزمات خفض التوتر والضغوط تعمل على مستوى اللاشعور كالكبت والإنكار والتبرير والتجنب والإسقاط والنكوص، بحيث تعدل من إدراك الفرد في اتجاه تخفيف حدة الضغط والقلق والصراع، وبالتالي فهي مواجهة داخلية نابعة من الفرد تساعده على تعديل انفعالاته وخفض الشعور بالمشقة والضيق، وقد أوضحنا عدم جدوى وفعالية هذا المدخل في نطاقه الاجتماعي.

كما نشير إلى مدخل تعديل السلوك الذي طوره لازاروس، وباندورا، وسكينر، في سياق تطورات المدرسة السلوكية بما عرف بالعلاج السلوكي المعرفي وتأكيدهم على دور المتغيرات الوسيطة والعمليات المعرفية ودورها في تقدير الضغوط وإدراك سبل المواجهة . ويتأسس المدخل السلوكي على جملة من الاستجابات من حيث هي إستراتيجيات نذكر منها، الاسترخاء بوصفه استجابة مضادة للقلق يعتقد أن له أهمية بالغة في خفض التوتر، ومنها

أيضا تعديل أسلوب الحياة، من حيث هو أسلوب غير ثابت دينامي قابل للتعديل والتطوير بحسب شروط التكيف البيئي الاجتماعي، والتعديل يمكن أن يشمل كل ما يتعلق بشخصية الفرد، ومنها كذلك الدعابة والمرح والترويح النفسي وبعث التفاؤل، إذ وجد أن الدعابة والتفاؤل أكثر المتغيرات المرتبطة بمقاومة الاحتراق النفسي، ومنها التدريب على السلوك التوكيدي ويعني به تعلم واكتساب مهارات سلوكية موقفية تمكن الفرد من التعبير عن الأفكار والآراء وعدم الموافقة على الآراء الأخرى واتخاذ القرار في مواقف الصراع بكل ثقة وشعور بالحرية، وتؤهل الفرد لحل مشكلاته وتجنبه الإحباط ومواجهة الضغوط البينشخصية (12 : 150ـ 162). فهذه الإستراتيجيات السلوكية إن هي وضعت لمواجهة الضغوط على المستوى الفردي إلا أنها يمكن اعتمادها كبرامج مجتمعية مؤسسية تخفف من أوضاع التوتر النفسي الذي يصيب الأفراد والجماعات.

في حين يتأسس المدخل التفاعلي كما هو عند "لازاروس، وفولكمان" باعتبارهما من الجيل الثاني على مبدأ عقلانية ميكانزمات التكيف، واعتبارها كما لو أنها عملية، وليست سمة أو استعداد داخلي، وأنها إرادية شعورية وتخضع للتقييم المعرفي الذاتي وتحديد معنى الضغط وقدرة الفرد على اختيار المواقف الملائمة وانتخابها، وبالتالي فمواجهة الضغوط النفسية تتوقف إلى حد كبير على التقييم الإيجابي للفرد للمواقف وقدراتهم الذاتية على المواجهة.

وطور آخرون أمثال "أوبرين وديلونجس" كجيل ثالث من خلال التركيز أكثر على العوامل الموقفية وعوامل الشخصية وهو ما أحال إلى إضافة تقدير أهمية العلاقات الاجتماعية والثقافية في مقاومة الضغوط النفسية حيث تلعب دور رئيسي في تقييم الفرد للتهديد الذي يواجهه (12: 86 ـ91) . وهو ما جعل هذه المداخل تهتم أكثر بالتعلم المرتكز على هدف تحقيق الذات، وتفضل تقسيم المجتمع إلى متعلمين وغير متعلمين يمكن تعليمهم وفقا لقابلياتهم وبصدد الكفاءة الذاتية والاجتماعية يعتقد باندورا أن ردود الفعل السيئة (الاستجابات غير الصحيحة نحو الضغوط) عادة ما تعود إلى نقص الكفاءة الذاتية وضعفها، وأن الكفاءة الذاتية العالية هي ما يجعل من الضغوط المجتمعية المؤثرة سلبا على النفس غير ضارة، وبالتالي فإدراك الفرد لقدراته الذاتية في مواجهة الضغوط، يساهم كما يرى " باندورا" بشكل رئيسي في تجاوز آثار الضغوط المدمرة للنفس، وأن الاعتقاد في ضعف الكفاءة الذاتية، يساهم في تراجع نشاط الأفراد الموجه ضد الضغوط . وهو ما يعرف بالتقييم المعرفي الذاتي الذي يقوم به الفرد تجاه المواقف الضاغطة في بيئة محددة في ثقافتها ومعارفها وخبراتها. ونجد مفهوم

الذات أشد وضوحا عند ماسلو وروجرز ومنحاهم الفيمينولوجي، حيث يعتقدون أن مفهوم الذات هو ما يجعل الفرد أكثر وعيا باختيار إستراتيجية الإقدام والمواجهة أو الإحجام والتقبل.

وفي ذات السياق التفاعلي الاجتماعي برزت أيضا استراتيجيات من جنس الكفاءة الذاتية الاجتماعية تركز على بناء المهارات البينشخصية وتعلمها كأساس لإحراز التوافق والنجاح في مواجهة الضغوط النفسية من حيث هي ضغوط ناشئة عن الاضطراب البينشخصية كاضطراب، العلاقات الأسرية والزوجية وعلاقة الرئيس بمرؤوسيه والمدير بأعوانه...الخ . ومنه أيضا إستراتيجيات المساندة الاجتماعية التي تقوم على شبكة العلاقات الاجتماعية الجيدة مع المحيطين، المساندين للفرد المضغوط في حياته (12 :66 ــ 71).

كما برزت نظرية الإرادة، حيث طور أخصائيو التربية الصحية، وهي نظرية بديلة عن إستراتيجية التوعية والإخبار بالخطر وبنيت على في بدايتها كما عرضها "رالف شفارتسر" على ما يسمى بنظرية التصرف المدروس (1975) من حيث هي نسق من الخطوات الهادفة تهتم ببناء السلوك الصحي، ابتداء من بناء النية وإثارة الدافع وإدراك الهدف أو القصد، وتحويل النية إلى إرادة جامحة، ومن ثمة تكوين مركب الضبط الذاتي لمنع أساليب السلوك الخطر، وهو ما قاد إلى تطوير مفهوم بناء الكفاءة الذاتية من حيث هي السيطرة على المواقف الاجتماعية وكل محاولات الإغراء والتضليل والإغواء بالجهد والمثابرة والعزم على السلوك الصحي (الإرادة) في مواجهة المواقف الخطرة، في سياق التمييز بين ثلاث مواقف (الموقف من النجاح والفشل والسيرورات اللاحقة للهدف، ولذلك أدخل توقع النجاح والفشل ضمن سيرورة استراتيجيات النجاح تتعزز بها الكفاءة الذاتية من حيث هي الوعي بالقدرة على مواجهة الضغوط . وانتهت البحوث والمناقشات إلى رسم نموذج مؤلف من خمسة أطوار (طور الاهتمام بإشكالية الصحة كموضوع قبل التفكير، طور التفكير في الإنجاز، طور التخطيط، طور التصرف، طور المحافظة على السلوك الصحي) (19: 57 ــ 69) 2

ــ 1 ــ 2 إستراتيجية تكوين الأفراد الهولومومبين

ويمكن لنا ــ إذا ما تجاوزنا بعض التداخل بين الإستراتيجيات ــ اعتبار المداخل المعرفية من حيث هي مداخل سيكولوجية ــ أنها تتموقع في المكانة الوسطى بين انعزال الذات المغلقة في الغرائز، وبين ميكانيكية الذات في الإشراط، وصيغت في إطار علم النفس المعرفي والإنساني على قاعدة أن الحاجات ليست ذات أصل جسدي بيولوجي عاطفي توجد في (اليبيدو) كما هو عند فرويد، بقدر ما هي ذات أصل في الشخصية الكلية من حيث هي

ممارسة إنسانية للحياة ضمن شروط وجود الفرد في نطاق إنساني وعقلي معرفي. وهي من هذا الموقع والصياغة تركز في إستراتيجياتها الوقائية والعلاجية من الضغوط النفسية، على تكوين أفراد هولونوميين Holonomy [3] من حيث هم أفراد مستقلين ذاتيو المرجعية تبادليين إن صح التعبير بين قطبي مركب(الاستقلال/ والاعتماد) في شخصيتهم، ويعتمدون على أنظمتهم الذاتية في كل ما ينجزونه من أعمال ويتمتعون بالاستقلالية الذاتية يمارسون أدوارهم في الأنظمة الهولونومية المستمدة من خمس حالات عقلية (الفاعلية، والمرونة، والمهارة، والوعي، والاعتماد المتبادل) باعتبارها مصادر محفزة للسلوك، وتستعمل كمقياس لمدى التطور المعرفي للأفراد والجماعات وتقييمهم، وبالتالي تخطيط التدخل الوسيط من حيث هو المدرب المؤهل لممارسة العلاج أو التدريب أو التعلم المعرفي. (20: 125)

فالفاعلية: من حيث هي الموقف النشط الإيجابي للفرد (ذكر أو أنثى) بوصفه تلميذ أو أب أو معلم أو مدير أو رئيس أو قاضي أو مهندس...الخ هي المتغير الأكثر ارتباطا بالنجاح والتفوق في المهام والمشاريع ومواجهة المشكلات، كما دلت عليه الدراسات الأمبيريقية، فهي المؤشر على قوة مركز الضبط أو التحكم الداخلي، الذي يجعل الفرد في حالة تقدير للذات عالي المنسوب وثقة بالنفس قوية، ويجعلهم متفائلون بالنجاح الدائم وذوي دافعية للعمل قوية للعمل مع الآخرين.

وأما المرونة من حيث هي ذات مصدر عقلي، فهي مصدر آخر للهولونومي يساعد الفرد على تجاوز ما يسميه بياجيه " التمركز حول الذات "أو "الأنوية الزائدة" بحيث يصبح الأفراد المرنين ــ في تفكيرهم وسلوكهم ــ في وضعية سلوك "الاعتماد المتبادل" يتوجهون لوضع تجارب الآخرين ــ مهما كان مصدرها ــ كما لو أنها فرص لتعلمهم ويجعلون الآخر شريك، وعلى مسافة واحدة من ذواتهم (يحبون للآخرين كما يحبون لأنفسهم) وهو ما يؤهلهم معرفيا إلى التعايش والابتكار والإبداع والمبادرة .

---

[3] مصطلح إغريقي يتألف من كلمتين Holos وتعني الكل . وكلمة On وتعني الجزء . وتستخدم للتعبير عن ما تعنيه تقريبا المصطلح الإغريقي الأصل هو الآخر .autonomous ويعني الذات المسيطرة وتستند عليهما الأنظمة المعرفية في التدريب والتعليم من حيث هما مصطلحين يتضمنان أكثر من غيرهما معاني مركب الاستقلالية /والاعتماد المتبادل في الذات

وأما المهارة أو الاحتراف المهني فالأشخاص الهولونوميين هم أكثر الأصناف البشرية دفاعا على الاحترافية والدقة في العمل والتحسين المستمر من حيث أن تفوقهم في ذلك هو شرط من شروط تأكيد ذواتهم في عالم المنافسة أو التعاون .

وأما الوعي . من حيث هو معرفة الفرد بما يجري داخله وما حوله والقدرة على تحديد واتخاذ القرار الحكيم المناسب، فهو بهذا المفهوم يعد مصدرا آخر من مصادر الذات الهولونومية تمكن الفرد من التفكير في تفكيره (ميتا معرفي) ومراقبة ذاته بنفسه (النفس اللوامة).

وأما الاعتماد المتبادل من حيث هو الاستعداد والقابلية للتأثير في الآخرين والتأثر بهم، والعمل على تحقيق الذات من خلال تحقيق أهداف الجماعة، فهو بذاك تعد موردا عقليا آخر يغذي الشخصية الهولونومية بالتفاعل المطلوب اجتماعيا . (20 : 128 ــ 135) .

فإذا ما اعتمدنا هذه الأنظمة الهولومومية في مدارسنا ومؤسساتنا يعتقد أننا سوف نكون بصدد إنتاج جيل في مجتمع يتمتع بالسلامة الفكرية والصحة النفسية والقوة العقلية الفائقة، وذوا كفاءة اجتماعية عالية

إستراتيجية العلاج بالمعنى:

ولا تكتمل صورة المداخل السيكولوجية المعتمدة على الكفاءة الذاتية والاجتماعية في مواجهة الضغوط النفسية، إلا إذا أفردنا بعض الحديث عن مقاربات "فرانكل" ومقولاته في العلاج بالمعنى وهو علاج متميز، وإن كانت هي الأخرى تنشط ضمن المداخل السيكولوجية المذكورة ولا تنفصل عنها تماما، ومن المفيد أن نستحضر هنا مآسي التوتاليتارية في ما تسببه من فقدان "معنى الحياة" لدى كل المازوخيين وهي الفئة المنتشرة أكثر في الوضع التوتاليتاري فهم يعيشون بدون هدف ولا معنى يدركونهم في كل ما يعملون حتى أن الكثير منهم مقتنع بتساوي الحياة والموت . وهي حالة مرضية تتجلى في اليأس والحيرة والاكتئاب والقلق الوجودي خاصة.

ومقولات فرانكل ــ في التشخيص والعلاج ــ تنطلق من أن العصاب الجماعي من حيث هو هنا، احد الآثار المترتبة عن الضغوط التوتاليتارية، هو ذو وجود حقيقي في عصرنا يتبدى في صورة "الفراغ الوجودي" منتشر في مساحات واسعة من المجتمع الصناعي الميكانيكي، ولعل مجتمعاتنا العربية، التي تعيش طور الذبذبة والتردد كما يصفها مالك بن نبي (21 : 26) ويعيش فيها الفرد بوصفه مشمولا في جماعة تبعية(21 :69) هي أكثر

المجتمعات عيشا للفراغ الوجودي، ويمكن وصفها ــ من منظور فرانكل ــ بأنها مجتمعات بدون معنى الحياة، وأفرادها فاقدون بالضرورة لمعنى وجودهم وحياتهم ما دام المجتمع وأفراده هائمون واهون، وكل المجتمعات التي تعيش حالة الفراغ الوجود هي مجتمعات بحاجة إلى علاج نفسي خاص ومناسب، ذلك أن العصاب الجماعي ــ عنده ــ ما هو إلا شكل من أشكال العدمية وفقدان الحرية،

وخلافا لمداخل القدرية العصابية وما يسميه بمرض "الحتمية الشمولية في العلاج النفسي كما هي في التحليل النفسي، يؤسس علاجه كفلسفة ترتكز على أنسنة الطب النفسي، وهي الفلسفة التي يعتقد أنها تخرج العلاج النفسي من قفص الميكانيكية النفسية، إلى طب نفسي متأنسن، انطلاقا من خاصية حرية الإنسان ــ ولو محدودة ــ في اتخاذ القرار والمواقف تجاه ما يبدوا حتميا وغير قابل للتجاوز، فالإنسان ليس مشروطا، بل ليس موجودا، بقدر ما هو إرادة لوجوده ومقرر لنفسه لما سيكون عليه وغرضي قصدي، يعطي للحياة معناها، ويسمو بذاته فوق الشروط البيولوجية والنفسية والاجتماعية،.. (22 : 170 ــ 177)

ومن ثمة فالبحث عن المعنى وتحديد هدف ما للحياة ــ في المنظور الوجودي ــ خاصية إنسانية وحاجة ملحة، والحياة بلا أهداف حياة بلا معنى، فللزواج معنى وللميلاد معنى وللعب معنى وللعلم معنى وللعمل معنى وللولادة معنى وللضحك معنى وللمشي معنى وللنوم معنى وللدراسة معنى ...الخ فلا شيء موجود بلا معنى، والمعاني من حيث هي النسق المعرفي الإيجابي عن الحياة، هي من يجعل الفرد ذا قيمة وتقدير ذاتي مرتفع، الأمر الذي يجعله أكثر إقبالا على الحياة (الرضا عن الحياة). وعند فرانكل يعد الإبداع أحد أهم المصادر التي تغذي لدى الفرد "معنى الحياة" حيث الثقة بالنفس والارتياح والإحساس بالوجود وبالحرية والمسؤولية، والدين عند أكثر الوجوديين كـــ "ألبورت، ووانج، وريكر" وغيرهم، ذا أهمية خاصة في إكساب الفرد والجماعة معنى الحياة، فهو يتموقع في منظومة الحياة النفسية كدافع ومعنى في نفس الوقت. والتفاؤل هو الآخر من حيث هو الرضاء عن الحياة وذو مرجعية مستقبلية، هو أحد نواتج البحث عن المعنى ومن مدخلاتها في مفس الوقت، فهو يساعد الفرد على تقييم معرفي إيجابي للمواقف الضاغطة، مما يجعله أقل تعرضا للاضطرابات والأمراض النفسية. في حين أن الفرد إذا لم يكتسب معاني خاصة لحياته ويخفق في وجود هذا المعنى (عديم المعنى) يصبح لا محالة عرضة للعصاب الوجودي وسيعاني من اليأس والاكتئاب والشك وقد يصل به الحال إلى التفكير في الانتحار. .(12 : 169 ــ 177). ومن

حيث أن الإنسان "غيري" في عقيدة فرانكل، وبفكرة التسامي كخاصية إنسانية اعتمدها فرانكل في تأسيس العلاج بالمعنى، يكون قد تجاوز فكرة إعادة الاتزان وإدارة اللذة والحاجات والغرائز، كما هي عند فرويد، وتجاوز فكرة إدارة المكانة والقوة عند أدلر، وتجاوز فكرة تحقيق الذات من حيث أن ذلك كله مجرد وسائل ميسرة للإنسان لبلوغ معنى الحياة .(22 : 181 ــ 197).

2 ــ 2 الإستراتيجيات المبنية على معيار الحرية:

الإستراتيجيات المبنية على معيار الحرية في دفع الضغوط النفسية الناشئة عن التوتاليتارية هي من التعدد والانتشار في مساحات معرفية وعلمية واسعة، تنازعتها عدة علوم مما أضفي عليها معاني مكثفة وجعلها غير قابلة للتحديد والتصنيف وحتى الترويض المفهومي، وهو ما نعده صعوبة في هذا المقام، ونتغلب عليه بالحصر الوهمي فقط. وتحت ضغط هذا العجز نقدم في ما يلي نموذجين أحدهما، ذا منطلقات سيكوسوسيولوجية آثرنا تصنيفه هنا لتركيزه على الحرية، والآخر من جنس الفكر الثوري.

2 ــ 2 ــ 1نموذج فروم السيكوسوسيولوجي:

ليس هناك نموذج واضح الخطوات الإجرائية عند فروم، حيث يتهم في تأسيسه لمعالم مشروع المجتمع السوي بأنه ميتافيزيقي، إلا أنه يمكن استنباط مشروعه في مجال مواجهة الضغوط التوتاليتارية من حيث هي طغيان واستبداد، من تحليلاته التي يمكن وضعها هي الأخرى ضمن إطارين:

إطار يتعلق بتحليلات الوقائع الأنثروبولوجية الاجتماعية، وإطار يتعلق بما طوره من فلسفة ونسق معرفي سيكولوجي ممتد إلى السوسيولوجيا . ويمكن تصنيف إستراتيجيته بالتالي ضمن إستراتيجيات الكفاءة الذاتية الاجتماعية وفق معيار الحرية من حيث هي طبيعة الإنسان، وهو ما جعلنا نؤثر على تصنيفها ضمن إستراتيجيات المؤسسة على الحرية رغم بعدها السيكولوجي الواضح، وفي ما يلي نحاول استشفاف هذه الإستراتيجية في أسسها الأنثروبولوجية والنفسية.

أ ــ فمن تأويل تاريخ تجربة الإنسان، إن في ضل الأديان اليهودية والمسيحية على الخصوص، وإن في التجربة الزمنية المتعاقبة للإنسان يرى فروم ما رآه"باخوفن أن" تاريخ الإنسان ــ رغم انتصار الأبيسية منذ زمن بعيد ــ كما لو أنه مسار تاريخي متقلب بين الارتداد إلى المزيج الإيجابي في المركب الأمومي والأبيسي، والارتداد إلى المزيج السلبي

في نفس المركب، فمشاهد العطف والحنان والحنو والمساواة والعدل والنمو والتقدم العلمي هي مشاهد اجتماعية للجانب الإيجابي للمركب في كل من الأبيسية والأموسية، والإفراط في الارتباط بالأرض والدم ومظاهر اللامساواة والتعصب والاستبداد والقهر وضغوط القانون والضمير التسلطي والحروب والكراهية وسحق الفردية والجنون وانتشار الإتكالية واللامبالاة، هي مشاهد طبعت كل تاريخ البشرية، فمن ترسيخ الإقطاعيات إلى وثنية الدم والعرق (القوميات) وعبادة الدولة ونشوء الظاهرة أستالينية والنازية والفاشية، فإلى الشمولية التي طبعت الأنظمة والنظريات والأفكار الحديثة، فإلى تركيز المصلحة والأنانية اليوم، وما صارت عليه الحياة من أبوية أكثر، حيث لم يبق من الجوانب الإيجابية من المركب (الأبيسي، والأموسي) إلا النزر اليسير، ولم تتمكن دولة القانون التي شيدها الإنسان الحداثي وناضلت من أجلها أجيال العلماء من المفكرين والمبدعين، ملء فراغ الأمومة، ولم تعد لدى مفكري اليوم كما كانت في السابق محل إجماع في قدرتها على إحراز تقدم أكثر من ما أنجزته في مجال التنمية البشرية، وهو ما قاد إلى التفكير في ضرورة الانتقال إلى تأسيس دولة العناية والرفق الأمومي .ويعتقد فروم في ذلك أنه الميلاد الجديد، إذ علي الإنسان أن يلد ويستمر في الميلاد والإبداع والصناعة، وعليه كجماعة أن يرسخ الضمير الإنساني الذي لا يمكن إلا بمزج المركب الإيجابي المتضمن في كل من الأموسية والأبيسية وإنتاج (الأخوية الشاملة) وهو ما يمنع ظهور التوتاليتارية ويقلعها من جذورها .ب ــ تشكل فلسفة فروم أو سيكولوجيته تحديدا من الناحية المنهجية، نموذجا لفهم الوضع المضغوط في الأنظمة التوتاليتارية والاستبدادية ويعتقد أنه أكثر النماذج نضجا بمقارنته بما طوره علم النفس الغريزي الفردي المتساوق مع مقولات الرأسمالية وتداعياتها في نمو الأنوية الزائدة وتضخم الأنا، أو بمقارنته كذلك بما طوره علماء الاجتماع في دراساتهم للجماعات الصغيرة الأمبيريقية، وهي النماذج المستغرقة في التفسيرات المفرطة والتفصيلات اللامتناهية التي أضاعت الحقيقة. (6 : 86 ــ 87).

وبتجميع ما تناثر من هذه الإستراتيجية في ثنايا كتاباته السيكولوجية عن المجتمع السوي يمكن الوقوف على مبادئها وأسسها وإجراءاتها العملية حيث تتأسس على عدة معطيات أهمها:

ب ــ يؤسس فروم مشروعه في الصحة النفسية المجتمعية على ما يمكن تسميته بـــ " الإنسان الثقافي " من حيث هو الجوهر البديل عن الجوهر الفرويدي الغريزي، فلحدث

الولادة وانفصال الحبل السري من حيث هو حدث الانقطاع عن الوحدة الطبيعية)أثر سيكولوجي هام وولادة لحاجة تتعلق بقدرة الإنسان على أن يقول" أنا " ولعل صرخة الميلاد، هي التعبير السيكولوجي الآخر عن ميلاد الهوية (ها أنا ذا) وهو قول ينبئ بالإحساس بالهوية، من حيث هي تشكل لمفهوم الذات، بوصفها قرارات وأفعال وإرادة متميزة عن العالم، ويغدوا الإحساس بانقسام حياة الإنسان (أنا، أنت) مجاهدات وجدل الانفصال والاتصال لإشباع حاجة التميز والإحساس بالهوية والانفصال عن العالم والاتصال به في آن واحد، فالطفل يبقى متمركزا حول الأم متوحدا معها، ما لم ينجز الإحساس بـــ "الانا" ويشبعها كحاجة، والاعتماد على النفس الذي يظهر عند الراشد وانفصاله عن الأسرة هو صورة من صور الإحساس بالأنا والتعبير عن الاستقلالية عبر الاعتراف بـــ "أنت" .

ويبدوا أن إشباع هذه الحاجة (الهوية)في المسار التاريخي للمجتمعات البشرية شابها كثير من الوهم، حيث ظهر وكأنه مسار للفقدان ، إذ أن الانتماء القبلي والعشيري الذي منح الفرد الإحساس بـــ "أنا نحن " وصيغة التماثل مع الدور الاجتماعي في التراتيبية الإقطاعية الذي منح الفرد مكانته، واستمر بصيغ أخرى في الانتماء للأمة والكنيسة والمؤسسة والدولة...الخ كان شعورا وإحساسا بالهوية وهميا أكثر منه واقعيا، ذلك أنها في حقيقتها ليست إلا إحساس وهمي بالهوية عبر الآخرين وليس بالتجربة، وبالتالي فهي أقرب إلى خبرة التماثل والإتحاد ألقطيعي. حيث جرى فيه تكييف الإنسان وفق المقتضيات والضرورات الخارجة عن طبيعته في الحرية الفردية مما أمس بالطبيعة الإنسانية. وتلك هي المشكلة. كما أن ظهور شكل التعبير بالإحساس بالهوية في الصيغة الفلسفية لديكارت المعروفة بالكوجيتو الديكارتي (أنا أفكر فإذن أما موجود" لم تؤدي إلى الإحساس بالحرية الفردية رغم ما رسخته من إبداع ونقد وخبرة (أنا مهندس، أنا ميكانيكي، أنا فيلسوف، أنا خبير اجتماعي ...الخ . إذ كانت بدائل تأثيث الهوية المفضلة عن "الأنا أفكر" هي بدائل التوتاليتارية في الانتماء لـــ (الأمة، الديانة، الطبقة، المؤسسة، الدولة، الحزب ...الخ فظهر الأفراد وكأنهم زاهدون في حرياتهم ويجازفون حتى بحياتهم من أجل إكساب هويتهم معناها الاجتماعي.

فالإنسان إذا لم يعش حريته في هذه الوضعية الناضجة لمجتمعاتنا، فإنه يكون قد اصطدم بضغوط ومعوقات لا قبل له بها، وهي من جنس الثقافة، تفوق وجوده الغريزي الفردي، مما اضطره إلى الارتداد في ما يسميه فروم بالترسخ في الدولة والعرق والسلطة . وهو وضع غير توافقي، فالمجتمع الذي ينمو على نقيض الطبيعة الإنسانية هو مجتمع يولد

الخوف والعجز واليأس ومكننة الإنسان، ومهما بلغ من التطور التقني ومن القوة عتوا، هو مجتمع مريض يفرض على الإنسان التكيف القسري حسب حاجاته مما يولد الضغوط النفسية بالضرورة .. (6 : 180 ــ 181)

2 ــ الإنسان الثلاثي الأبعاد : وتتأسس هذه الإستراتيجية على مبدأ أو أرضية الإنسان الثلاثي الأبعاد (الفردي والاجتماعي والإنساني) أي أن الفرد ذو وجود حتمي في هذه الدوائر الثلاثة التي تشكل منظومته النفسية وديناميتها ومجال نموها الطبيعي، وهو مبدأ أو تأسيس من شأنه أن ينتشل الإنسان من مثنوية الفردي والجماعي وينتشل الإنسانية من كل أشكال التحيزات والنزاعات بين الأهداف الفردية والاجتماعية وما نشأ عنها من نظريات عنصرية إبادية لشعوب بأكملها كالحروب التي استعبدت شعوب وولدت أنظمة شمولية استبدادية ديكتاتورية منزوعة العلاقات العاطفية، وهي كلها وضعيات عاشتها الإنسانية وزجت بالأفراد في العزلة التي يعتبرها فروم المأزق القطبي (إما وإما) حيث يسعى ما هو فردي لإلغاء ما هو اجتماعي والعكس صحيح، فما كان من خيار للإنسان إلا خيار العيش في الخوف الدائم من العزلة تحت وطأة الضمير التسلطي ، ولا يجرؤ على التفكير في ما لا يفكر فيه أبدا، وهو ما يناقض حريته الطبيعية من حيث هي طبيعة للخيارات المتعددة.

2ــ التخلص من ما يسميه فروم بـــ"الإيمان غير العقلي أو الأعمى " الذي وظفه كما لو أنه المقابل "الشك غير العقلي" الناتج عن شعور الفرد بتشوش الواقع في العمل والسياسة والأخلاق وغيرها بشكل ومستويات غير قابل للحصر، حيث لا يتعلم الناس في ضوئه إلا مواقف اللامبالاة وعدم الاكتراث . فالاقتناع التعصبي الناتج عن غير تجربة ذاتية والملون أكثر بالانفعال والإرغام العصابي والخضوع لسلطة الآخر المفروضة (رأي، فكرة، جماعة، سلطة سياسية، شخص ...الخ) هو اقتناع ناتج عن الإيمان الرديء كما هو موصوف لدى سبنسر، ويجب استنبات مكانه الإيمان العقلي من حيث هو الاقتناع الراسخ وليد التجربة الذاتية في النقد،.(فروم : 57 ــ)

4 ــ إشباع حاجة التواصل للحد من النرجسية : وللتخلص من النرجسية من حيث هي ماهية كل حالة نفسية مرضية، وعزل وانفراد يطرح فروم الحاجة إلى التواصل بالأخر بالمحبة، من حيث هي حاجة طبيعية تولد من تجربة "أنا " المنفصلة عن" أنت" أي بتعبير آخر "الاستقلالية المتصلة " بحيث تجعل الفرد كما يعيش تمايزه عن الأشياء والآخرين، تجعله أيضا أكثر شغفا في الاتصال والتكامل والتوافق مع الآخر، فتكون حاجات الآخرين مهمة

أهمية حاجته، فالاتصال المبني على الحب هو ما يبدد نزعة الاتصال الأبوي الموسومة بالاتكال أو الخوف، والتي تنموا مع الأفراد وقد تستمر إلى ما بعد سن الرشد فتغدوا مازوخية أو سادية مجتمعية. (6 : 135 ــ 142).

5 ــ إطلاق حرية الإبداع والتجاوز: ينطلق فروم من فكرة الخلق التي يجب أن تكون مدعاة الإبداع، من حيث أن ذلك شرط الاكتمال والكمال، لكون الإنسان مخلوق غير سلبي، فهو ينجب الحياة بالبذر والزرع وتوليد الأفكار وصيغ الحياة المتعددة، فلم تكن صفة "الإنسان المخلوق" حاجزا منيعا لإطلاق شرط وجوده كمخلوق إيجابي يصنع حياته ويتجاوز الراهن باستمرار نحو الأفضل،. فالإبداع هو مشكلة تطرح على مستوى إمكانية تجاوز الإنسان لذاته كمخلوق، إلى كونه مبدع وخالق لبيئته، إذ أنه إذا لم يستطع التجاوز بالإبداع وحصول الحب والسعادة لما ابتدعه، فإنه سوف يتحقق السعي إلى التدمير (تدمير الحياة) بوصفه إبداع كذلك وتجاوز لما هو موجود، فتدفع الإنسان إلى الشقاء كما هو الحال في تدمير الذات في الوضع التوتاليتاري الذي لا يقبل التجاوز الإبداعي فيسود التجاوز التدميري . (6 : 142 ــ 144) .

6 ــ الترسخ: حسب "فروم" وكل السيكولوجيات الحديثة يبدوا أن الإنسان شديد التعلق بروابطه الطبيعية التي انقطع عنها يوم ميلاده وقطع حبله السري وانفصاله عن الأم وفقدانه لبيئة الرحم، ولا يهدأ إلا بعد أن يجد المقدار الذي يعوض به هذا الفقدان والانقطاع في الحياة الدنيا وفي الجذور الإنسانية العميقة. حيث الشعور بالحب في أسرة آمنة، ومجتمع آمن، ووطن آمن جديد، ونظام آمن، ومؤسسة آمنة، وروابط آمنة، فالأم هي كل الغذاء وكل الحماية، وكل الأمن، وكل العون، وكل الحب، وكل الأرض ...الخ يصعب على الفرد الانقطاع عنها وترك الاتكال ونكران العجز المفطور عليه، ومع أن مظاهر الانفصال وتعلم الراشد تحمل المسؤولية والانقطاع عن الأم يضل مشدودا مهما كبر في مواقف ونواحي كثيرة من سلوكه إلى التماس العون والحماية والمساعدة من أمه وأقاربه (المساندة الاجتماعية) عند كل تصادفية وجوده أو عند ألأخطاء المحتومة. ويرصد فروم هذه الظاهرة بوضوح في الأمراض النفسية التي تظهر فيه شهية العودة إلى رحم الأم في حالة الشخص الفصامي وأشد حالات العصاب، حيث يبدوا علي الفرد التصرف كما لو أنه جنين عاجز عن أداء أبسط وظائفه ككائن مستقل، فيعيش الإنسان نزاع بين العودة إلى حياة الرحم، حيث تظهر في أحلامه (كهف مظلم) وفي حالات "عشق الموت" وبين الجانب الناضج من شخصيته الذي

يدفع به نحو القبول بالحياة الدنيا الطبيعية، وما مظاهر الأشخاص المتكلون على الخارج وعلى شخصية أمومية تحميهم وترعاهم في كل مصالحهم، إلا مظهر من مظاهر استمرار الخوف من تجربة الفطام عن ثدي الأم، فما يسمى بـ" سفاح الحرم" من حيث هو ــ عند السيكولوجيين ــ ليس إلا المنع من العودة إلى الوحدة الطبيعية ما قبل الفردية، هو الميلاد الضروري لكل تقدم، وهو شرط الفردية الموجبة لقطع الحبل السري . وبموجب ذلك وطبقا للتفسير الأموسي للحياة الاجتماعية، كان ارتباط الفرد بالأم والعشيرة والدولة والكنيسة والوطن وإلى أي تشكيلة اجتماعية حامية يحبها ويرسخ بها جذور انتمائه وهويته، هو شكل من أشكال استمرار الأمومة العاطفية وليس الجنسية كما كان يعتقد فرويد. فإن زادت انقلبت إلى ضدها. . (19. 57ــ 69).

وخلاصة القول في مشروع فروم هو أنه كما يسعى الإنسان لإشباع حاجاته الأولية لئلا يموت عليه أن يسعى ويجتهد لإشباع حاجاته النفسية لئلا يصاب بالجنون، وأن يسعى إلى ذلك بطريقة معيارية صحيحة، لا بالطريقة غير المرضية، حتى لا يصاب بالعصاب، فعليه أن يصل ذاته بالآخرين بالعمل والتجربة والحب، حتى لا يصاب بالتواكل والاغتراب، وعليه اللا يكون منغمسا في ذلك حتى لا يصبح مسلوب الإرادة في الأبوية والجماعة والدولة والمؤسسة والرمزية التوتاليتارية، وعليه أن ينمي عقله وإحساسه بالهوية الفردية والحرية، لا بمختلف أشكال الجماعة التي تجعله في وهم الهوية والاغتراب . وأن حسن التدبير والعمل بذلك على المستوى الفردي والجماعي سيسقط لا محالة وإلى الأبد النزعة الخضوعية وتجفيف كل منابع ومصادر الضغوط النفسية المعيقة للطبيعة الإنسانية.

2 ــ 2 ــ 2 إستراتيجيات التحرير (مشروع الذات المقهورة):

التوتاليتارية، من حيث هي وضع مرضي اجتماعي سياسي أو هي تجليات لــ الأنا المطلق النيتشوية أو "الأنا القاهر" بوصفها الأساس العملي لــ "الأنا أفكر"الديكارتية " في الوضع الأوروبي القاهر، أو هي الأنا الجمعي، أو وهي "أنا وحدية" المتنكرة للآخر يقتضي، أي الوضع المرضي ــ للتخلص منه ــ جهد كلي يفضي إلى التحرير، وهو ما أجمعت عليه فلسفات التحرير ــ منذ عهد الاستعمار ــ كما لو أنها فلسفات علاجية لمآسي التوتاليتارية السياسية والأخلاقية والتربوية والاقتصادية ....الخ . ورغم ما يقال عن انقضاء عهد الثورات ولم يعد لها مفعولها السابق، إلا أن هناك محاولات إعادة الإنتاج كثيرة ولأجل ذلك نقترحها كإستراتيجية ثورية للتخلص من الضغوط النفسية، ولكثرة فلسفات التحرير وتشابهها سوف

نقتصر بما يسمح به المقام على عرض آراء ريكو دوسيل في ما أسماه بـــ " مشروع الذات المقهورة" من حيث هي تلك الذات التي تعاني الاستبداد والقمع والقهر والضغط الموجودة في كل دوائر الوجود الاجتماعي (الأسر، المؤسسة، الدولة، المحيط الدولي) وينطلق ريكو كما هو الشأن عند كل فكر تحرري من أن الذات في الوضع التوتاليتاري (الدولي أو المجتمعي) من حيث هو وضع إشكالي قهري لن تكون فيه الذات إلا ذات مقهورة تعاني من الظلم والضغوط النفسية، تصيب الفرد في عمقه النفسي، والمجتمع في روابطه وطبقاته ومؤسساته، والنظام الدولي في علاقاته، فالأعضاء في الوضع التوتاليتاري هم أعضاء سلبيين مكرهين غير راضين مستسلمين قدريين، أخرجتهم وضعيتهم تلك من طبيعتهم كإرادة حرة مقاومة، إلى حالة من العجز النفسي والغثائية ، مما يثير إحساس عميق لدى الكل بالحاجة إلى التحرر من تلك الضغوط. والثورة من حيث هي لحظة نقد القهر والضغط، وتقوم على فلسفة جدل الكلمة والفعل وصياغة غضب المقهورين في واقعيته هي السبيل الوحيد لتغيير "الأنا القاهر".

ويتأسس المشروع إجرائيا على مقولات عدة منها:

مقولة الخلق من حيث هي فطرة الإبداع المستمر والتجاوز للأوضاع القائمة المتردية، ومقولة "المقاربة" من حيث هي الاقتراب المستمر من العدل عبر المقاربة من الآخر المقهور، ومقولة وحدة الكل من حيث هي إدراك للتماسك والعضوية الوظيفية للموجودات كحركة كلية، فلا الوجود الاقتصادي كما هو عند ماركس، ولا عضو التناسل كما هو عند فرويد، هو السبيل التحرري من القهر التوتاليتاري الفيتشي، بل بهذا المعنى للوحدة الكلية . ومقولة التوسط من حيث هي اختيار واعي للإمكانيات من الأشياء والأوضاع والأحداث بوصفها معاني يمكن توظيفها ككل لإنجاز مشروع الذات المقهورة (التحرير) ومقولة الخارجية من حيث هي التميز والخروج عن النظام القاهر وبداية الشعور بالأنا والهوية والحرية، ومقولة مكافحة الاغتراب من حيث هو انفصال الذات عن واقعها واغترابها عنه كما هو الحال في الشعوب المقهورة .(2: 42 ــ 70).

ومن ميادين التحرير الرئيسية التي يشملها مشروع الذات المقهورة ضحية التوتاليتارية يحصي ريكو الميدان السياسي من حيث هو برامج ووضعيات تحكمية توجيهية قسرية من المركز القاهر المتعالي، موجهة نحو الأفراد والجماعات والدول في المحيط المقهور، ذلك أن الآخر في الوضع التوتاليتاري القاهر ومنظومته السياسية هو صيد يصطاد،

وهو بربري يستبعد، وهو وحشي يباد، وهو المريض يحجر عليه وهو الأداة وموضوع جاهز للاستعمال والإدارة والاستغلال....الخ . (2 : 73 ــ 80) .

تحرير الجنس : من حيث هي تركيز لــ "للأنا ارغب" التي تتجه نحو الآخر، خلافا للأنا أفكر الذكورية، وبين الذكورية والأنوثة يوجد "الخنثى" الغريب بتعبير أفلاطون لا قيمة له، فالجنس تعبير عن وجودين تواقين للإتحاد والاختلاط منجذبين نحو بعضهما البعض، وإحساس بالجسم الآخر واستحضاره كشريك في رغبات ودوافع وحب وحنان وخصوبة وتقرب واتصال، دون تصادم أو اغتصاب ما زوخي وهو التصادم الذي يحدث أكثر في الطبقات الفقيرة المهمشة المقهورة، وهو ما يعني ضرورة الاستجابة لمطالب ورغبات الآخر، من حيث هو شريك مرغوب فيه ومطلوب، لا يتم تحقيق الرغبة إلا به وبحضوره المادي الجسدي والمعنوي. (2 : 80ــ 84)

تحرير التربية : من حيث هو التخلص من صور البترياركية القائمة على سلطوية ثقافة المركز القوي المبيد التربوي لثقافة المحيط وتغريبها بعنف المدنية وقوة العلم التكنولوجي، وهي القوة التي تجهض أية لحظة للميلاد الجديد للثقافة في رحم الشعب، وهي القوة التي تجتهد في تكوين " الأنا المثالي" مشوه وملوث كما لو أنه صورة لذئب هوبز يحارب ويضحي ويعتدي من أجل البقاء في المنافسة، هي تربية لا تخرج عن أطر الأنا التسلطية الشمولية القاهرة، وظفت المدارس في المحيط كما لو أنها مؤسسات ملحقة بوظائف الإعلام الجماهيري مصنوعة لإنتاج الوحدة والتماثل والرأي العام وتسويق الخبر المراد تسويقه . تلك هي التربية العنيفة المستنبتة في مدارس وجامعات المحيط تحميها نخب محلية مصابة بدهشة إستيطيقية سلبية منفعلة، وهي التربية التي يعمل مشروع الذات المقهورة على التحرر منها بميلاد الأنا الثقافية والحافظة للميلاد الأسطوري للثقافة الشعبية المحلية التراثية والراعية لها واستحداث الدهشة استيطيقية المضادة الإيجابية عبر بيداغوجيا النقد والإبداع والوعي بالذات .(2: 84 ــ 89) .

ونذكر من بين ما ابتدعه النخبويين في مجال تربية السلام من حيث هي تربية تخفف من حدة التعصب القومي والإغلاق الأيديولوجي والطبقي واللغوي والعرقي، نذكر مشروع بيداغوجيا السلام في إطار المدرسة الدولية الشاملة من إبداع " هرمان رورس" أستاذ التربية في جامعة هايدلبرج الألمانية، حيث بنا تصورا شاملا للوظائف البيداغوجية ومناهجها المحققة للسلام، كثقافة عالمية إنسانية شاملة، كالاهتمام باللغات الأجنبية والتفكير العلمي،

والانفتاح على البيئة ومقاربة الأوضاع الدولية والمشكلات المتماثلة في العالم، وتعزيز مشاريع التعاون والتواصل، والاهتمام بمشكلات الآخرين، والتركيز على بيداغوجيا حل المشكلات...الخ .

تحرير الإلحاد بالفتشية : من حيث هو نزع القداسة عن كل مصنوع مقدس، وإطلاق الحرية للتجاوز، وإشاعة العمل النقدي كثقافة شعبية ومؤسسية، فبموجب خاصية الخلق في الوجود التي تعني في ما تعنيه إيجاد واقع بدون مقدمات، فلا وجود لنظام أبدي في التربية أو في السياسة أو غيرهما، مما يفسح المجال واسعا أمام الإبداع والتجديد والابتكار من أجل ما يسميه "ريكو" بنفي الضرورة والحتمية وتكريس مفهوم العبادة كما لو أنها اقتصاد يعطي الآخر المقهور بعدل (2 : 89 ــ 93).

الحاجة إلى التوجيه والإخلاص

كما أن من مقتضيات العقل الإحساس بالهوية كما أسلفنا، فكذلك من مقتضياته الجوهرية "التوجيه" من حيث هو عملية تقريب الذات من الواقع والتكيف مع ما يثيره من المشكلات وفهمها وعلاج بياناتها، بحيث يصبح للعقل وظيفة توجيهية للذات نحو تحقيق التكيف السليم، فكلما نما العقل ونضج، كلما كان نظام التوجيه الذاتي لدى الفرد أوفى وأشبع بوصفه حاجة.

رابعا : خلاصة واستنتاج:

إن اتفاق النخب العلمية في تشخيص المرض الاجتماعي وانتباه الكل إلى مشكلة الإنسان في الوضع الصناعي التوتاليتاري من حيث هو إنسان فاقد لمكانته المحورية (الحرية) وأصبح وسيلة لمقاصد أخرى توتاليتارية خارج وفوق ذاته، حيث الاغتراب الكلي عن الذات والبيئة، فلم تعد حياته ذات معنى في مفهومه، واختزلها في حياة تسويقية قسرية التوجيه التوتاليتاري، ولم يعد إنتاجيا ولا إراديا، وفقد إحساسه بذاته وشعر بعدم الأمن والقلق، والاضطراب النفسي، ولا هاجس له، إلا أن يصرف طاقته في التعويض وهو يعرض وجوده للخطر بما ينتجه من تقنية مسيطرة، واتفقوا على أن الإنسانية بما أنتجته عقولهم هم في وضع عصابي جماعي مريض وممرض. إلا أن اتفاقهم في التشخيص لم يكن ليؤدي إلى رصد الأسباب بمنظار واحد، حيث تباينوا في ذلك فاعتقد فرويد أن الإفراط في كبت الدوافع والغرائز هي محنة الإنسان الأولى والأخيرة. ورآها بعضهم في فقدان الحرية السياسية ورآها أخصائيو الصحة النفسية في فقدان التدريب على الإرادة، ورآها الاشتراكيون في تنظيم

المسألة الاقتصادية والرأسماليون في الحرية الاقتصادية، وآخرون رأوها في الفقر الروحي، وفقدان المعنى من الحياة، ورآها البعض الآخر في نقص الوعي وإدراك الذات، وهي رؤى أحادية توتاليتارية إقصائية إستبعادية وإصائية لبعضها البعض مما عمق من المرض الاجتماعي أكثر.

تلك هي أهم النماذج الإستراتيجية السيكولوجية منها والسياسية الفلسفية لمواجهة ضغوط التوتاليتارية، نأمل أن نكون قد أحطنا القارئ بالمفاتيح المطروحة للنقاش كتجارب أكاديمية وثورية تحاول أن تعيد للإنسان توافقه النفسي وفق طبيعته الإنسانية أو الغريزية أو المجتمعية الحرة، وهي بدون شك أطروحات ناقصة بمقتضى فطرة النقص الأبدية عند الإنسان، تحتاج دوما إلى الاكتمال المتجدد، وهو مدعاة للإبداع المستمر، فكما يقال أن النفس حالة إبداع مستمر، فلنمض قدما أيها القارئ ــ ما دمنا كائنات مبدعة ــ إلى توليد سؤال الصحة النفسية والمجتمعية من جديد من وحي ثقافتنا وإبداع إستراتيجيات مكملة تكون بحجم معاناتنا من القهر التوتاليتاري وإشباع شغفنا للحرية، فالقول لا يمكن أن يعوض العمل.

والله أعلم

المراجـــــع:

1 ــ إبراهيم مدكور وآخرون. معجم العلوم الاجتماعية . يونسكو.ط.1975. الهيأة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.

2 ــ ريكو دوسيل . فلسفة التحرير. مشروع الذات المقهورة. (قراءة : فريال حسن خليفة لكتاب الفيلسوف المكسيكي .ريكو دوسيل*. ط2007/1 مكتبة مدبولي . القاهرة.

3 ــ مجموعة من الكتاب. نظرية الثقافة. ت. علي السيد الصاوي. عالم المعرفة. ع. 1997/223.المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.

4 ــ جان فرانسوا دورتيه . معجم العلوم الإنسانية . ت. جورج كتورة. ط2009/1. مجد. المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع . بيروت . لبنان.

5 ــ حنا أرندت . أسس التوتاليتارية. ت. محمد سعيد. الخطاب التربوي لدى الأحزاب السياسية . عالم التربية. ع18/ 2008. الجديدة. المغرب.

6 ــ إريك فروم. المجتمع السوي . ت. محمود منقذ الهاشمي . ط1 /2009 . الهيأة العامة السورية للكتاب . دمشق. سوريا.

7 ــ كارل بوبر. درس القرن العشرين. ت. الزواوي بغورة . ط2008/1. منشورات الاختلاف. . الجزائر.

8 ــ محمد عباس نور الدين. التنشئة الأسرية . رؤية نفسية اجتماعية تربوية لعلاقة الأسرة بأبنائها والإشكاليات التي تطرحها. ط2005/1 . منشورات عالم التربية . مطبعة النجاح الجديدة . الدار البيضاء. المغرب.

9 ــ علي اسعد وطفة . بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي. ط2000/2 . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت لبنان .

10 ــ العربي فرحاتي، أنماط التفاعل وعلاقات التواصل في جماعة القسم الدراسي وطرق قياسها (دراسة ميدانية لدروس اللغة في المدرسة الأساسية الجزائرية . ط2010/1. ديوان المطبوعات الجامعية. بن عكنون . الجزائر .

11 ــ حسن شحاتة. زينب النجار . معجم المصطلحات التربوية والنفسية (عربي ــ انجليزي . إنجليزي ــ عربي . ط2003/1 . الدار المصرية اللبنانية. القاهرة .

12 ــ طه عبد العظيم حسين ، وسلامة عبد العظيم حسين . استراتيجيات إدارة الضغوط التربوية والنفسية . ط1 /2006 . دار الفكر . عمان . الأردن.

13 ــ جان لابلاش و ج. ب. بونتاليس . معجم مصطلحات التحليل النفسي . ت. مصطفى حجازي . ط1985/1 . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت لبنان.

14 ــ آرثر أس . ريبر / إيملي ريبر. المعجم النفسي الطبي . أنجليزي ــ عربي . ت. عبد العلي الجسماني وآخرون . ط2008/1 . الدار العربية لعلوم الناشرين . مكتب تهامة. المملكة العربية السعودية .

15 ــ عبد الكريم غريب . المنهل التربوي . معجم موسوعي في المصطلحات والمفاهيم البيداغوجية والديداكتيكية والسيكولوجية. ج2/ ط2006/1 . منشورات عالم التربية . مطبعة النجاح . الجديدة . الدار البيضاء . المعرب .

16 ــ مايكل كول. علم النفس الثقافي . ماضيه ومستقبله . ت . كمال شاهين . عادل مصطفى . ط1/ 2002 . دار النهضة العربية . بيروت .لبنان.

17 ــ جان لابلانش . إشكاليات III . التسامي. ت . نهلا حرب . ط1/ 2010 . مؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت لبنان.

18 ــ مصطفى حجازي . الإنسان المهدور . دراسة تحليلية نفسية اجتماعية . ط2005/1. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء المغرب.

19 ــ رالف شفارتسر . نظرية الإرادة في التربية الصحية . ت . سالم جميل رضوان . مجلة الثقافة النفسية . ع . 1996 . دار النهضة العربية . بيروت . لبنان .

20 ــ آرثر . ل . كوستا . روبرت .ج . جارمستون. التدريب المعرفي . أساس لدارس النهضة . ت. مدارس الظهران الأهلية . ط2/ 2004 . دار الكتاب التربوي للنشر والتوزيع . السعودية.

21 ــ مالك بن نبي

22 ــ فيكتور فرانكل .. الإنسان يبحث عن المعنى . ت. طلعت منصور . ط1/ 1982 . دار القلم . الكويت.

مراجع استفيد منها ولم ترد في المتن

23 ــ عبد الوهاب المسيري. فتحي التريكي . الحداثة وما بعد الحداثة. ط1 / 2003 . دار الفكر . دمشق.

24 ــ نيقولا تيماشيف. نظرية علم الاجتماع. طبيعتها وتطوراته. ت. محمود عودة وآخرون . .ط1980/6. دار المعارف . القاهرة.

25 ــ خير الله عصار. كيف نحقق السلام في عالمنا المعاصر. مجلة الثقافة . وزارة الثقافة. الجزائر.

26 ــ عبد الستار إبراهيم. آفاق جديدة في دراسة الإبداع . (سلسلة علم النفس للحياة) . وكالة المطبوعات . الكويت.